الجمهورية الجزائرية الشعبية الديموقراطية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مستوى السنة أولى علوم إنسانية جذع مشترك

دعامة بيداغوجية

مقياس مدارس ومناهج

إعداد الأستاذ: طويلب عبد القادر

السنة الجامعية: 2022/ 2023

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

السنة الأولى علوم إنسانية

محاضرات مقياس مدارس ومناهج.

مقدمة:

يعتبر مقياس مدارس ومناهج من أهم المقاييس التي أدرجت في مجال تكوين الطالب الجامعي وذلك للأهمية التي يكتسيها هذا المقياس، إذ يصاحب الطالب في جميع المراحل، إلى أن يتخرج ويتحصل على شهادته الجامعية، فهو المفتاح والأدات التي تؤهله لولوج باب البحث العلمي والوصول إلى المعرفة والاكتشافات، خاصة في مجال العلوم الإنسانية، حيث يحتاج الطالب إلى إنجاز بحوثه وأعماله الموجهة، ولا سبيل له إلى ذلك إلا بواسطة منهج علمي يحدد له الخطوات والأساليب والمراحل التي يسير عليها في بحثه.

وفي هذه المطبوعة سوف نحاول الولوج مع الطالب إلى أبجديات المنهج العلمي التي تقوم على ضبط المصطلحات والمفاهيم الأساسية، إلى معرفة مراحل تكون المنهج العلمي عبر العصور، إلى تطبيق المنهج العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية كيف كانت البدايات وما هي العقبات التي واجهت العلوم الإنسانية من أجل استخدام المنهج العلمي في أبحاثها ودراساتها.

راجين التوفيق في المهمة التي أوكلت لنا من اجل تقريب الصورة وتوضيح المفاهيم وتمكين الطالب من الحصول على القواعد الأساسية للمنهج العلمي وخطوات البحث العلمي الأكاديمي المنتج للمعرفة، نقدم هذه المطبوعة.

محتوى المقياس:

1. تعريف المنهج العلمي.

2. أهمية المنهج العلمي.

3. العمليات الأساسية في المنهج العلمي: الاستقراء، التصور، الفهم، التحليل التركيب، التجريب، الاستنباط، التصنيف، التفسير، التجريد، الحكم، التعليم.

4. العناصر الأساسية في المنهج العلمي: المبادئ، المراحل، الأساليب، الوسائل.

5. خطوات المنهج العلمي: الملاحظة، وضع الفروض، اختبار الفروض، التعميم.

6. مراحل تكون المنهج العلمي:

أ. في العصور القديمة

ب.في العصور الوسطى

- إسهام المسلمين
- إسهام فلاسفة وعلماء أوروبا

ج. في العصر الحديث

7. الدعوة إلى استخدام المنهج العلمي في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية.

8. المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

9. مقارنة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى.

10. المناهج الكمية والمناهج الكيفية.

11. الموضوعية والذاتية:

أ. تعريف الموضوعية.

ب.التفكير الذاتي والتفكير الموضوعي.

ج. الموضوعية من الخارج.

د. الموضوعية من الداخل.

ه. الموضوعية من الداخل والخارج.

المحاضرة 1: تعريف المنهج العلمي.

يكثر الحديث في الوسط الجامعي عن المنهج العلمي والبحث العلمي، عن انجاز البحوث ومذكرات التخرج، وعلى الطالب أن يتقن إعدادها ويتمكن من قواعد المنهج والبحث العلمي، فماذا يعني المنهج العلمي والبحث العلمي وما هي خصائصه وأسسه وما هي أهميته؟

– المنهج العلمي:

المنهج العلمي مصطلح مركب من كلمتين منهج وعلم، ولكي نضبط مفهومه لابد من تعريف هذه الحدود.

1- تعريف المنهج:

أ: لغة: كلمة منهج مصدر بمعنى طريق، سلوك. وهي مشتقة من الفعل نهج بمعنى طرق أو سلك، أو اتبع.[1] أو المنهاج أي الطريق الواضح. أو هو: الخطة المرسومة.[2]

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ".. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً.." سورة المائدة الأية: 48. بمعنى سنة وسبيلا. فالمنهاج هو السبيل والطريق الواضح.

2- تعريف العلم:

لغة: المعرفة والإدراك والوعي

اصطلاحا: عرف العلم عدة تعريفات منها:

- أنه سلسلة من تصورات ذهنية ومشروعات تصورية مترابطة متواصلة، هي نتاج لعمليتي الملاحظة والتجريب.[3] وهذا التعريف يراعي طبيعة العلم الذي يقوم على أساس عقلي ويعتمد على خطوات أهمها الملاحظة والتجربة.

[1] - غازي عناية ، منهجية البحث العلمي عند المسلمين ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ، 1405هـ.1985م ، ط1 ،ص: 91.

[2] - عبد الهادي الفضلي ، أصول البحث ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، 1412هـ.1992م ، ط 1 ، ص49.

[3] - ربحي مصطفى عليان ، البحث العلمي أسسه مناهجه وأساليبه إجراءاته ، بيت الأفكار الدولية ، عمان ، 2001 ، ص:14.

– الطريق الموصل إلى تعميمات، في صورة قوانين أو نظريات تنبثق عنها أهداف فرعية تتلخص في وصف الظواهر وتفسيرها وضبط المتغيرات للتوصل إلى علاقات محددة بينها، ثم التنبؤ بالظواهر والأحداث لدرجة مقبولة من الدقة.[1] وهذا التعريف قائم على أساس بيان الوظيفة التي يحققها العلم.

– ويعرفه قاموس أوكسفورد بأنه: " ذلك الفرع من الدراسة الذي يتعلق بجسد مترابط من الحقائق الثابتة المصنفة والتي تحكمها قوانين عامة وتحتوي على طرق ومناهج موثوق بها لاكتشاف الحقائق الجديدة في نطاق هذه الدراسة.[2]

فهو المعرفة الموثقة الشاملة حول موضوع ما. أو هو مجموعة المعارف المؤيدة بالأدلة الحسية، وجملة القوانين التي اكتشفت لتعليل حوادث الطبيعة تعليلا مؤسسا على تلك القوانين الثابتة

3- المنهج العلمي اصطلاحا:

هو " فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون جاهلين بها، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين." إذن هناك نوعان من المنهج: أحدهما للكشف عن الحقيقة، ويسمى التحليل أو منهج الحل، أو منهج الاختراع، والآخر وهو الخاص بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها، يسمى التركيب أو منهج التأليف. ويلاحظ على هذا التعريف أنه ناقص، إذ هو لا يكاد يتحدث إلا عن الأفكار، لا عن الوقائع والقوانين.

لذا نجد تعريفا آخر أشمل من الأول يقول بأنه "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته الفكرية، حتى يصل إلى نتيجة معلومة."[3]

أو بأنه: "البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة " أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم".

فالمنهج التأملي الذي يسير فيه العقل سيرا مقصودا وفق خطوات معينة وقواعد معلومة ومحددة سلفا هو المقصود، وهو الموسوم بعلم المناهج ولم تعرف كلمة المنهج بمعناها الاصطلاحي في أوربا إلا مع عصر النهضة

[1] - ربحي عليان ، المرجع السابق ، ص: 14.
[2] - نفسه ، ص: 15.
[3] - عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1977 ، ط3 ، ص: 4 ، 5.

الحديثة، وذلك حين صاغ "بيكون" قواعد المنهج التجريبي في كتابه "الأورغانون الجديد"، واكتشف "ديكارت" قواعد المنهج الاستنباطي وأعلن ذلك في كتابه "مقال عن المنهج"، وعلى ذلك يكون القرن السادس عشر الميلادي هو القرن الذي شهد ميلاد المنهج العلمي في أوربا بمعناه الاصطلاحي المعروف.[1]

وعلى العكس من ذلك فإن المسلمين قد عرفوا المنهج قبل ذلك مع نزول الوحي الذي حث على طلب العلم وبين وسائله ودعا إلى التأمل والنظر في المخلوقات، وإلى المحاورة والمجادلة بالبرهان والحجج الدامغة وأرشد إلى استعمال المنهج التجريبي في الوصول إلى الحقيقة.

والحديث عن المنهج العلمي يقودنا إلى الحديث عن البحث العلمي الذي يتم تطبيق قواعد المنهج أثناء البحث. فما هو البحث العلمي وما هي خصائصه ومقوماته؟

البحث العلمي:

تعريف البحث العلمي:

لغة: التحري والتقصي كما تعني السؤال والاستفسار عن شيء أو موضوع ما.

أما البحث العلمي اصطلاحا: هو استقصاء منظم يهدف إلى اكتساب معارف جديدة وموثقة بعد الاختبار العلمي لها.

أو هو التحري والاستقصاء المنظم الدقيق الهادف للكشف عن حقائق الأشياء وعلاقتها ببعضها البعض وذلك من أجل تطوير الواقع الممارس لها فعلا أو تعديله.

ويتضح من هذين التعريفين أن البحث حتى يكون علميا لابد أن تكون الطريقة المتبعة فيه علمية وموضوعية ومن أول خطوة (تحديد المشكلة موضوع البحث) إلى آخر خطوة فيه (اكتشاف الحقائق والعلاقات بين أبعاد أو أجزاء الموضوع والتحقق من صحة ما تم التوصل إليه).[2]

خصائص المعرفة العلمية:

التراكمية :تعود المعرفة بجذورها إلى بداية الحضارات الإنسانية، وقد بنيت معارفنا فوق معارف كثيرة أسهمت فيها حضارات إنسانية مختلفة، لأن المعرفة تبنى هرميا من الأسفل إلى الأعلى، نتيجة تراكم وتطور المعرفة العلمية.
والتراكمية العلمية إما أنها تأتي بالبديل، فتلغي القديم مثل :فيزياء نيوتن التي اعتقد بأنها مطلقة إلى أن جاء أينشتاين

[1] -حلمي عبد المنعم صابر ، منهجية البحث العلمي وضوابطه ، ص: 16.
[2] - محمد عبيدات وآخرون ، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات ، دار أوائل للطباعة والنشر ، عمان ، ط 2 ، 1999 ، ص:4.

بنسبيته، وبالمثل فإن الكثير من النظريات والمعارف العلمية في مجالات مختلفة، استغنى عنها الإنسان واستبدلها بنظريات ومفاهيم ومعارف خاصة في مجال العلوم الاجتماعية التي تتسم بالتغير والنسبية.

التنظيم :إن المعرفة العلمية معرفة منظمة تخضع لضوابط وأسس منهجية، لا نستطيع الوصول إليها دون إتباع هذه الأسس والتقيد بها.

كما أن التطور العلمي يقتضي من الباحث التخصص في ميدان علمي محدد، وذلك بحكم التطور العلمي والمعرفي، وتزايد التخصصات وتنوع حقولها .مما يسمح للباحث بالاطلاع على موضوعاته وفهم جزئياته وتقنياته.

السببية :يعرف السبب بأنه مجموع العوامل أو الشروط وكل أنواع الظروف التي متى تحققت ترتب عنها نتيجة مطردة، ونستطيع القول بوجود علاقة سببية بين متغيرين: سبب (علة) ونتيجة (معلول)، عندما نجري تجارب عديدة وبنفس الهدف نتحصل على نفس النتيجة.

الدقة :يخضع العلم لمبادئ ومفاهيم متعارف عليها بين ذوي الاختصاص تتضمن مصطلحات ومعاني ومفاهيم دقيقة جدا ومحددة.

ويجب استعمال هذه المصطلحات بدقة وتحديد مدلولها العلمي، لأنها عبارة عن اللغة التي يتداولها المختصون في فرع من فروع المعرفة العلمية

وتقتضي الدقة الاستناد إلى معايير دقيقة، والتعبير بدقة عن الموضوعات التي ندرسها.

اليقين :إن المعرفة العلمية لا تفرض نفسها إلا إذا كانت يقينية، أي أن صاحبها تيقن منها عمليا، فأصبح يستطيع إثباتها بأدلة وبراهين وحقائق وأسانيد موضوعية لا تحمل الشك، وهذا ما يعرف باليقين العلمي.

فالنتائج التي نتوصل إليها يجب أن تكون مستنبطة من مقدمات ومعطيات موثوق من صحتها.

الموضوعية :إن الباحث ينبغي أن يكون حياديا في بحثه، يتجرد من ذاتيته، وينقل الحقائق والمعطيات كما هي في الواقع، وألا يخفي الحقائق التي لا تتوافق مع وجهة نظره وأحكامه المسبقة.

التعميم والتنبؤ: وذلك باستخدام نتائج البحث في التنبؤ بحالات ومواقف مشابهة، لأن الغرض من الدراسة ليس الموضع المبحوث فقط وإنما إمكانية تعميم النتائج المتحصل عليها إلى باقي الظواهر المشابهة.[1]

أهمية البحث العلمي وغايته:

- الإثراء العلمي من خلال الاكتشاف الجاد والتفسير والنقد المنطقي الذي يساهم في تطور معارف الإنسان وتهذيب سلوكه.

[1] - عبيدات ، المرجع السابق ، ص: 11.

- يساهم في تقدم الأفراد والمجتمعات، لهذا يتطلب إمكانات مادية وبشرية هامة.
- ضبط سير العقل في عملية البحث والتحكم في العمليات العقلية من تحليل وتركيب...[1]
- وأما غايته فهي لا تخرج عن أحد الأمور التالية: "اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ."[2]

أسس ومقومات البحث العلمي

- **تحديد الأهداف البحثية بدقة ووضوح:** خاصة في اختيار الموضوع، فماذا يريد الباحث؟ وأي مشكلة أو ظاهرة تم اختيارها؟ وما هو التخصص الدقيق للباحث؟ وماذا يريد وكيف ومتى وإلى أين؟
- **قدرة الباحث على التصور والإبداع:** وإعمال فكره وموهبته، وإلمامه بأدوات البحث المتباينة، والتمكن من تقنيات كتابة البحث العلمي.
- **دقة المشاهدة والملاحظة:** للظاهرة محل البحث، وتحديد المقولات حولها، وإعمال الفكر والتأمل، مما يقود إلى بحث المتغيرات المحيطة بالظاهرة، بحيث تكون المحصلة وضع قوانين تتفق مع واقع الملاحظات والمتغيرات.
- **وضع الفروض المفسرة للظاهرة:** ليتم إثباتها والبرهنة عليها، وتوضع كأفكار مجردة وموضوعية ينطلق منها الباحث، بحيث تقوده إلى جمع الحقائق المفسرة للفروض، وبالتالي إجراء التجارب على ضوئها، بعيدا عن تطويعها لما يريد الباحث إثباته والوصول إليه.
- **القدرة على جمع الحقائق العلمية بشفافية ومصداقية:** وذلك من مختلف المصادر والمراجع، وغربلتها وتصنيفها وتبويبها وتمحيصها بدقة، ثم تحليلها.
- **إجراء التجارب اللازمة:** بهدف الحصول على نتائج علمية تتفق مع الواقع العملي، وتتطلب التجارب في العلوم الاجتماعية تحليل السبب والمسبب والحجج، واستمرارية متابعة المتغيرات .واختبار الفروض والتأكد من مدى صحتها.
- **الحصول على النتائج واختبار مدى صحتها:** وذلك بتمحيصها ومقارنتها وصحة انطباقها على الظواهر والمشكلات المماثلة، إثبات صحة الفرضيات.
- **صياغة النظريات:** تعتبر النظرية إطار أو بناء فكري متكامل يفسر مجموعة من الحقائق العلمية في نسق علمي مترابط يتصف بالشمولية، ويرتكز على قواعد منهجية لمعالجة ظاهرة أو مشكلة ما.

[1] - عقيل حسين عقيل ، فلسفة مناهج البحث العلمي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999 ، ص: 26 ، 27.
[2] - عليان ، المرجع السابق ، ص: 20 ، 21.

وتمثل النظرية محور القوانين العلمية المهتمة بإيضاح وترسيخ نتائج العلاقات بين المتغيرات في ظل تفاعل الظواهر. فيجب أن تكون صياغتها وفق النتائج المتحصل عليها من البحث، بعد اختبار صحتها والتيقن من حقائقها العلمية، وصحتها مستقبلا للظواهر المماثلة.

خصائص البحث العلمي

للبحث العلمي جملة من الخصائص والمميزات، نستطيع استخلاصها من التعريفات السابقة، أهمها الخصائص التالية:

1- **البحث العلمي بحث منظم ومضبوط:**

أي أن البحث العلمي نشاط عقلي منظم ومضبوط ودقيق ومخطط، حيث أن المشكلات والفروض والملاحظات والتجارب والنظريات والقوانين، قد تحققت واكتشفت بواسطة جهود عقلية منظمة ومهيأة جيدا لذلك، وليست وليدة مصادفات أو أعمال ارتجالية.

2- البحث العلمي بحث نظري:

لأنه يستخدم النظرية لإقامة وصياغة الفرض، الذي هو بيان صريح (يخضع للتجارب والاختبار).

3- البحث العلمي بحث تجريبي:

لأنه يقوم على أساس إجراء التجارب والاختبارات على الفروض، والبحث الذي لا يقوم على أساس الملاحظات والتجارب لا يعد بحثا علميا .فالبحث العلمي يؤمن ويقترن بالتجارب

4- البحث العلمي بحث حركي وتجديدي:

لأنه ينطوي دائما على تجديد وإضافات في المعرفة، عن طريق استبدال متواصل ومستمر للمعارف القديمة بمعارف أحدث وأجد.

5- البحث العلمي بحث تفسيري:

لأنه يستخدم المعرفة العلمية لتفسير الظواهر والأشياء بواسطة مجموعة من المفاهيم المترابطة تسمى النظريات.

6- البحث العلمي بحث عام ومعمم:

لأن المعلومات والمعارف لا تكتسب الطبيعة والصفة العلمية، إلا إذا كانت بحوثا معممة وفي متناول أي شخص، مثل الكشوف الطبية.

هذه بعض خصائص البحث العلمي التي تؤدي معرفتها إلى توسيع آفاق معرفة مفهوم البحث العلمي.

كما يتصف البحث العلمي بمجموعة مترابطة من الخصائص البنائية التي لابد من توافرها حتى تتحقق الأهداف المرجوة منه، وهي على النحو التالي:

- الموضوعية بعيدا عن التحيز والميولات الشخصية.
- الدقة وقابلية الاختبار
- إمكانية تكرار النتائج
- التبسيط والاختصار
- تحقيق غاية أو هدف
- التعميم والتنبؤ[1]
- **خطوات البحث:**
- تحديد المشكلة: لابد أن تكون هناك مشكلة محددة، حتى يقوم الباحث بالبحث عن حل لها.
- تجميع البيانات: تجميع البيانات والمعلومات المتعلقة بالحقائق الخاصة بالمشكلة وفحصها فحصا دقيقا.
- وضع الفرض: هي تخمينات معقولة للحل الممكن للمشكلة قد تكون صائبة أو خاطئة. وهي تساعد في تحديد الاتجاهات التي يمكن البحث فيها عن دليل.
- اختبار الفرض: أو فحص الفرض الذي تمت صياغته بناء على البيانات و المعلومات المتوفرة و نقوم بتجميع الدليل من جميع المصادر الممكنة..
- النتيجة: بعد اختبار الفرض بتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات ووضعها في الإطار المنطقي الصحيح فإما يثبت صحة الفرض الذي وضعه الباحث، وبالتالي فإنه يشكل النتيجة الأساسية في دراسته أو يرفض الفرض الذي وضعه بعد أن ثبت عدم صحته.
- التعميم: وهي تفسير لكل الحالات المشابهة والتي لم تدخل مجال البحث الذي تم القيام به وهذه العملية هي ما يسمى بالتعميم.[2]

II– أهمية المنهج العلمي :

يمكن أن نجمل هذه الأهمية فيما يلي:

[1] - عبيدات وآخرون ، المرجع السابق ، ص ص: 7 ، 11.
[2] - عليان ، المرجع السابق ، ص: 27 ، 28.

- كشف لثمرة جهود الباحثين والعلماء السابقين، لأخذ نتائجها وإضافة الجديد عليها، وفي أنه طريق لتحقيق المنجزات في ميدان العلوم التطبيقية.
- الالتزام بالمنهج في بحث معين مما يزيد البحث احتراما لدى المتخصصين، ويزيده قوة في ذاته، كما يزيده جمالا عند المهتمين بتطبيق المناهج في البحث العلمي. (حتى أن جودة البحث أصبحت تقاس بمدى التزام الباحث بالمنهج الذي رسمه لبحثه، ولا تقاس بمدى هضمه للموضوع، وما توصل إليه من نتائج وكشفه من جديد.).
- يمنح السيطرة على الطبيعة، كما يمنح القدرة على التكيف معها وبما يلائمها.
- الطريق المأمون في الوصول إلى العلم الصحيح.
- وسيلة إلى التثبت والتحقق في طلب العلم، وبدون المنهج السليم من البحث يشرد الذهن وتتحكم فيه الأهواء ويضل الطريق.[1]

[1]

المحاضرة 2: العمليات الأساسية في المنهج العلمي:

يحتاج المنهج العلمي إلى مجموعة من العمليات العقلية الأساسية أثناء البحث والوصول إلى الحلول للمشكلات التي ندرسها وهي كما يلي:

- **الاستقراء:**

هو "الاستدلال على المجهول من المعلوم، أو هو انتقال الذهن من حكم خاص إلى حكم عام". أو هو: "عملية ملاحظة الظواهر وتجميع البيانات عنها للتوصل إلى مبادئ عامة وعلاقات كلية".

وكلمة استقراء تعني قيادة العقل للقيام بعمل يؤدي إلى الوصول لمبدأ أو قانون يتحكم في الجزئيات التي تخضع لإدراكنا الحسي.

وفي المنهج الاستقرائي ينتقل الباحث من الجزء إلى الكل، أو من الخاص إلى العام حيث يبدأ الباحث بالتعرف على الجزئيات ثم يقوم بتعميم النتائج على الكل. ويشمل الدليل الاستقرائي الاستنتاج العلمي القائم على أساس الملاحظة، والاستنتاج العلمي القائم على التجربة بالمفهوم الحديث للملاحظة والتجربة.

ولقد قسم أرسطو الاستقراء إلى نوعين: الاستقراء الكامل والاستقراء الناقص.

1- **الاستقراء الكامل**: هو استقراء يقيني يقوم على ملاحظة جميع مفردات الظاهرة موضوع البحث لإصدار الحكم الكلي على مفردات الظاهرة. وهذا يبدو غير عملي من الناحية الواقعية لما يتطلبه الاستقراء الكامل من القيام بملاحظة كافة عناصر الظاهرة. وهناك من يعتبر الاستقراء الكامل استنباطا لأنه لا يسير من الخاص إلى العام بل تأتي النتيجة مساوية للمقدمة.

2- **الاستقراء الناقص**: وهو استقراء غير يقيني حيث يقوم الباحث بدراسة بعض مفردات الظاهرة دراسة شاملة ثم يقوم بتعميم النتائج على الكل، فالباحث ينتقل من المعلوم إلى المجهول.

والاستقراء الناقص هو المنهج الذي يستند إليه العلم، وهو الأسلوب الذي ساعد بشكل كبير في بناء الحضارة الكونية الحديثة.

انتقادات وجهت إلى الاستقراء التام:

- لا سبيل إلى الإحصاء الكامل لجميع الجزئيات.

- لا يعد استقراء لأنه يتعامل مع الكليات في مقدماته.
- فشل في إدراك كثير من العلاقات الضرورية والعلمية التي تقوم بين بعض الجزئيات.
- أن نتيجة هذا القياس عقيمة لا تضيف شيئاً جديداً.

أما الجوانب الإيجابية:

- يمكن أن ييسر علينا المعرفة العلمية، ويمكننا من الحياة بشكل أيسر.
- قد يعطي العلم دقة أكبر ويقيناً أوثق.

أسس الاستقراء:

- مبدأ السببية؛ أو العلية العام: وهذا المبدأ يقرر أن الظواهر تترابط على نحو عِلّي، وأن لكل معلول علة، والمشتبهات متماثلة العلل.
- مبدأ أو فكرة الاطراد في الطبيعة: ومعناه أن الطبيعة تخضع لنظام ثابت عام مطرد لا يختلف، فهي تسير على نسق واحد لا يتغير ولا يتبدل.

- **الاستنباط:**

وهو الاستدلال الذي ينتقل من الكل إلى الجزء أو من العام إلى الخاص. والاستنباط يبدأ أو يستند إلى مسلمات أو نظريات ثم يستنبط منها ما ينطبق على الجزء المبحوث. من هنا نرى أن ما يصدق على الكل يصدق على الجزء. والاستنباط يمر بثلاث خطوات، وهي المقدمة المنطقية الكبرى، والمقدمة المنطقية الصغرى، والنتيجة.

والمقدمة المنطقية الكبرى هي عبارة عن مبدأ عام والذي يعتقد بصحته (من المسلمات). والمقدمة المنطقية الصغرى وهي المبدأ الخاص أو الظاهرة المبحوثة والتي تنطبق مع المسلمات العامة. والتوصل إلى النتيجة يتم عبر سلسلة من المقارنات والقياسات والربط المنطقي بين المقدمتين.

ومن الانتقادات الموجهة إلى المنهج الاستنباطي هو أن النتائج التي يتم التوصل إليها لا تخرج عن حدود المقدمتين، فإذا بدأ الباحث بمقدمة غير صحيحة فمن المؤكد أن ينتهي إلى نتيجة غير صحيحة.

وبسبب الانتقادات الموجهة إلى أسلوبي الاستنباط والاستقراء حول مدى دقتهما استلزم الأمر المزج بين الأسلوبين للوصول إلى العلم والمعرفة الدقيقة، وهذا الأسلوب الجديد سمي بالمنهج العلمي الحديث.

- **التجريب:**

من التجربة وهي بالمعنى العام، خبرة يكتسبها الإنسان عمليا أو نظريا. أما بالمعنى الخاص، التدخل في مجرى الظواهر للكشف عن فرض من الفروض أو للتحقق من صحته، وهي جزء من المنهج التجريبي.

أما من الماحية المنطقية، فهو:" اختيار منظم لظاهرة أو أكثر وملاحظتها ملاحظة دقيقة للتوصل إلى نتيجة معينة، كالكشف عن فرض أو تحقيقه."[1]

أما التجريب الذهني فهو تجريب في مجال الفكر، حين يتمثل الذهن ظروفا واقعية يربط بها توقعه لنتائج معينة. فهو تجريب لا ينصب على الأشياء، بل على تصورها وتمثلها في الذهن.[2]

التجريب بمعناه الواسع نشاط كثيرا ما يمارسه الانسان في المواقف الجديدة التي لا تسعفه خبرته السابقة بالتصرف فيها، فحين يواجه الفرد مشكلة جديدة لا يعرف لها حلا يجرب، يخطئ أو يصيب إلى أن يجد لها حلا.

أما التجريب كوسيلة للبحث عن الحقيقة فهو مختلف في مضمونه ومقوماته. وقد كان العرب أول من اهتم بالاعتماد على التجريب في الوصول إلى المعرفة. ثم بعد ذلك اهتم به كثير من المفكرين من الغرب وأدخلوا عليه كثيرا من التعديلات حتى أصبح في الوقت الحالي من أدق الوسائل للوصول إلى حقائق علمية تتمتع بدرجة عالية من الصدق والثبات.

ويشير التجريب في مضمونه العلمي العام إلى قياس تأثير موقف معين أو عامل معين على ظاهرة ما. وأهم ما يميز البحث التجريبي هو افتراض فرض معين وتغيير الظروف بطريقة خاصة وبقصد معين ثم ملاحظة النتائج وتحليلها. ويهدف إجراء التجارب أساسا إلى اختبار صحة الفروض العلمية، ومعرفة العلاقات المسببة والوظيفة بين العوامل المتفاعلة والمتداخلة في الموقف.

- **التحليل**: هو أساس لكل تفكير علمي وسمة وأداة للبحث العلمي ومن ثم خاصية للمعرفة العلمية.[3] والتحليل منهج عام يراد به تقسيم الكل إلى أجزائه، ورد الشيء إلى عناصره المكونة له، ومنه التحليل الرياضي، وقد استعمله اليونانيون في البرهنة الرياضية وعززه ديكارت في منهجه، ومنه الطبيعي ويستعمل أصلا في الكيمياء.

[1] - محمد قاسم ، المرجع السابق ، ص: 108.

[2] - إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي ، ص: 39.

[3] - محمد محمد قاسم ، المدخل إلى مناهج البحث العلمي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1999 ، 44.

ومنه التحليل النفسي (فرويد)، والتحليل القصدي (هوسرل)، وتحليل الظواهر العقلية، والتحليل النحوي، ومنه التحليل المنطقي، ويراد به تحليل الألفاظ لمعرفة معانيها بالدقة وإزالة ما فيها من لبس.[1]

- **التركيب** : Synthesis

لغة هو الجمع بين عناصر متفرقة ومحاولة التأليف بنيها.

أما اصطلاحا: فهو منهج يقوم على السير من البسيط إلى المركب. بقول ديكارت "أرتب أفكاري بادئا بأبسط الأمور وأيسرها معرفة، وأتدرج رويدا رويدا حتى أصل إلى معرفة أكثر يقينا".

عول عليه خاصة الرياضيون والمناطقة في القرن السابع عشر زعما منهم بأن البساطة واليقين مقترنان.

وفي العلوم الطبيعية التركيب منهج يرمي إلى تكوين مادة جديدة من عناصر أو مركبات أبسط منها وبخاصة في الكيمياء.

وفي علم النفس: جمع الذهن بين تصورات ومشاعر مختلفة لتكوين كل واحد منتظم.

وفي التركيب التاريخي: محاولة تنسيق نتائج تحليل الوثائق لإعادة تكوين ما دلت عليه.[2]

والتركيب هو الجزء المكمل للتحليل أو هو العملية المقابلة له. ويستخدم في حالتين: الأولى البرهنة على مشروعية التحليل وسلامته، كما في حالة التحقيق التجريبي، فالقانون يأخذ صورة قاعدة أو مبدأ، والتركيب يستخدم لإعادة بناء الظاهرة في إطار هذه القاعدة أو المبدأ. أما في الحالة الثانية، فالتركيب عملية للعرض وللتعميم في نفس الوقت، يقول ديكارت في هذا المعنى:".. أمضي في أفكاري بالترتيب، بادئا بأبسط الأشياء وأيسرها معرفة، لأرتقي منها رويدا رويدا، وبخطوات تدريجية إلى معرفة أكثر الأشياء تركيبا".

[1] - إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي ، ص: 40.

[2] - إبراهيم مدكور ، نفس المرجع ، ص: 43.

وإذا قارنا بين التركيب والتحليل لاحظنا أنه بعد أن نعرف المكونات الأساسية لظاهرة من الظواهر، أو العلل المشتركة التي تدخل في تكوينها، فإنه يمكننا إعادة تركيب هذه العناصر من جديد، إما بنفس النسب والعلاقات وهذا يعني أننا أصبحنا نعرف الظاهرة، أو بتركيب جديد يؤدي إلى معنى جديد يشير إلى الابتكار والإبداع.[1]

- **التصور**: هو التخيل، وهو عند علماء النفس، حصول صورة الشيء في العقل، وفي علم المنطق هو إدراك الشيء بالعبارات المفردة، كإدراك المعنى المراد بلفظ الجسم، والحجر، والشجر، والروح، والكرم، وإنسان ذي عيون ثلاث، وأمثاله. وهذا الإدراك لا يصاحبه إثبات ولا نفي، ولا يصاحبه إذعان ولا يقين، أي أن التصور أو الإدراك لا يلزمه التصديق[2].

وينقسم التصور إلى:

- تصور ضروري: وهو إدراك البديهي الذي لا يتطلب تفكيرًا، كتصورنا معنى الوجود.
- تصور نظري: وهو الإدراك غير البديهي والذي يتطلب تفكيرا، كتصورنا معنى الروح.

التصوّر وتكوين المفاهيم: للتصوّر دور كبير في التعرف، تكوين وتخزين المفاهيم في الذاكرة، فعند مواجهة أي موقف يحمل المفاهيم، يقوم العقل بالتعرف عليها من خلال مقارنتها بالمفاهيم المكتسبة سابقا، أو يقوم ببناء تصوّر جديد إذا كان المفهوم جديدا أو مطروحا في سياق جديد، لكن التصوّرات الجديدة لا تبنى من اللا شيء، بل من مكتسبات سابقة، سواء كانت صحيحة أو خاطئة.

يرى بياجي أن التصوّر عامل مهم للانتقال من الذكاء الحسي الحركي إلى الذكاء المفاهيمي، وهذا الأخير ينمو تزامنا مع نمو اللغة، وهذا الانتقال يمثل النمو العقلي للطفل، ويتضمن تكوين التصوّر المفاهيمي)

إن الانتقال بين التصوّر والمفهوم يشبه الانتقال من المعرفة التلقائية إلى المعرفة العلمية، إذ يحمل التصوّر عناصر ذاتية تؤثّر على طبيعته، فلكل فرد تصوّر خاص به، أما المفهوم فهو ثابت نسبيا وهو معرفة علمية مشتركة بين عدد من الأفراد وفي مجال معيّن، فمفهوم الدائرة في الرياضيات واحد، لكن عدد تصوّرات الدائرة عند تدريسها للتلاميذ بعدد هؤلاء، بالإضافة إلى تصوّر المعلم.

[1] - محمد محمد قاسم ، المرجع السابق ، ص: 46.

[2] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، ص: 281. الجرجاني علي بن محمد ، كتاب التعريفات ، تح ، إبراهيم الأبياري ، دار الريان للتراث ، 1403ه ، ص: 83.

- **الفهم:**

يطلق الفهم على إدراك موضوع التفكير وتحديده واستخلاص المدلول من الدال عليه، ففهم اللفظ حصول معناه في النفس، فإن لم يحصل معناه في النفس بالقوة أو الفعل كان كألفاظ اللغات الأجنبية تسمعها ولا تدرك معانيها.

والفهم مرادف للإدراك ولقوة الذهن التي هي استعداد تام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر.[1]

وهو الهدف الأولي للعلم. فبدون فهم الظواهر والوقائع لا نستطيع أن نصدر حكما أو تعميما حولها. ويعني فهم الظاهرة أن نجد علاقة تربط بينها وبين ظواهر أخرى. وإذا لم نجد لها أي علاقة بأي ظاهرة كانت، تبقى الظاهرة غامضة غير مفهومة أو معروفة.

والفهم لا يقتصر على مجرد الوصف للظاهرة، بل لابد من التفسير لأنه مرحلة أساسية لاكتمال عناصر الفهم لتلك الظواهر. كما أننا لا نستطيع أن نحقق تفسير الظواهر إلا إذا كنا قد اكتشفنا تلك الظواهر وأدركنا عناصرها والسمات والخصائص المميزة لها.

التفسير:

التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار، وفي الشرع توضيح معاني الأيات وشأنها وقصتها وأسباب نزولها بألفاظ تدل عليها دلالة ظاهرة.[2]

وتفسير الحقيقة العلمية وإيضاحها هو أن نثبت أنها متضمنة في غيرها من الحقائق المعلومة، أو أنها لازمة عن المبادئ البديهية اضطرارا.[3]

والتفسير هو تجاوز وصف الظواهر وتقديم التفسيرات الملائمة لها انطلاقا من الفروض المفسرة. فهدف البحث العلمي هو معرفة الأسباب التي أدت إلى حدوث الظاهرة بالشكل الذي حدثت عليه، لأن ذلك بدوره سوف يقود إلى صياغة تعميمات قابلة للتحقق ومفسرة للطريقة التي تعمل بها مختلف المتغيرات المتضمنة في الموقف

[1] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2 ، 170.
[2] - الجرجاني ، التعريفات ، ص: 87.
[3] - جميل صليبا ، نفسه ، ج1 ، ص: 314.

المبحوث. **وعلى ذلك فالتفسير سببي أي يحدد الأسباب التي لولاها ما حدثت الظاهرة بالشكل الذي حدثت عليه، والتفسير عملية عقلية أكثر منها عملية حسية، ويؤدي التفسير بالضرورة إلى التنبؤ.**

التصنيف:

لغة: التنويع والتأليف، ومنه تصنيف الكتب.

اصطلاحا: تقسيم الأشياء أو المعاني وترتيبها في نظام خاص وعلى أساس معين بحيث تبدو صلة بعضها ببعض، ومنه تصنيف الكائنات، وتصنيف العلوم.

والتصنيف الحقيقي ما قام على أساس من المميزات الذاتية والثابتة، والتحكمي ما بني على أمور اعتبارية ظاهرية.[1]

هو غاية العلم ويهدف إلى تقدمه. وهو ترتيب نسقي للمعلومات. وعرف بأنه عملية تجميع الأشياء في فئات على أساس اكتشاف خواص عامة فيما بينها.

وبمعنى آخر التصنيف هو وضع كل فرد في فئة خاصة به، بحيث يسهل معرفته وتمييزه عن غيره، وبذلك يسهل الانتفاع به. أو هو وضع المشاهدات المتشابهة في مجموعات، بحيث تشترك المشاهدات في داخل مجموعة معينة في خاصية معينة تميزها عن المشاهدات في المجموعات الأخرى.

والباحث عليه أن يقوم بتصنيف المادة العلمية التي جمعها، ويكون حسب ما يقتضي به عقله، ونوع تفكيره، وطبيعته، وهدف الدراسة. ويمكن تصنيف المادة العلمية إلى أحد الأنساق التصنيفية الثلاثة وهي: التصنيف النوعي، التصنيف الترتيبي، التصنيفات الأساسية (على أساس حجم الموضوع أو كميته).

- **التجريد: للتجريد معاني عديدة أهمها أو ما يخدم موضوعنا:**

التَّجْرِيدُ فِكْرِيّاً : عَمَلِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ يَعْزِلُ فيها الإِنْسانُ صِفَةً أَو عَلاقَةً عَزْلاً ذِهْنِيّاً وَيَحْصُرُ فيها التَّفْكيرَ. والذهن من شأنه التجريد لأنه لا يحيط بالواقع كله ولا يرى منه إلا أجزاء معينة في وقت واحد، وتسوقه التجربة أيضا إلى التجريد لأنها تعرض له الواقع مجزءا أو تظهره على صفة ما.

وفي المنطق الصوري عملية ذهنية يسير فيها الذهن من الجزئيات والأفراد إلى الكليات والأصناف.[2]

[1] - إبراهيم مدكور ، المعجم ، ص: 45.

[2] - إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي ، ص: 39.

أما منهجيا فيقصد بالتجريد استنباط الخصائص أو الصفات التي تتميز بها الظواهر أو الأشياء، بحيث تتحول إلى أفكار أو مفاهيم ذهنية تدر ك بالعقل لا بالحواس. ويقوم التجريد على إغفال السمات الجزئية المشخصة concrete من أجل الوصول إلى معنى عام ينطبق على أفراد النوع الواحد. و الفكرة المجردة إذا بلغناها وجدناها بالضرورة فكرة عامة تصدق على مجموعة الأفراد أو مجموعة المواقف المتجانسة (لا على فرد واحد أو موقف جزئي واحد).

و يعبر برتراند راسل 1872-1970 (فيلسوف و عالم منطق و رياضي و مؤرخ و ناقد اجتماعي بريطاني حاز على جائزة نوبل للآداب 1950) عن صفة التجريد في كتابه أصول الرياضيات بقوله: إن العقل العلمي لا يعالج الأشياء الموجودة في الواقع من حيث هي كذلك، و إنما من حيث أن لها خواصا معينة.. فنحن حين نتكلم عن المكان أو الحركة، فليس ما نتكلم عنه هو المكان الفعلي أو الحركة الفعلية كما نعرفها في التجربة، بل نتكلم عن شيء له تلك الخواص العامة المجردة للمكان أو الحركة.[1]

- **التعميم:**

عم المطر البلاد شملها فهو عام. والتعميم عند الفلاسفة هو أخذ الصفات المشتركة بين الأشياء المفردة لجمعها في تصور واحد. وهو أن تجعل الصفات المشاهدة في عدد محدود من أفراد الصنف شاملة للصنف كله. وكل انتقال من الخاص إلى العام، أو من العام إلى الأعم فهو تعميم، كقوانين علم الجبر فهي تعميم لقوانين علم الحساب، وكقانون الجاذبية العامة، فهو تعميم لقانون سقوط الأجسام.[2]

ولما كان العلم يعتمد على الاستقراء الناقص الذي لا تتيسر فيه ملاحظة كل مفردات الظاهرة، فإن الباحث يكتفي بملاحظة بعض النماذج، ثم يحاول الكشف عن القوانين العامة التي تخضع لها جميع الحالات المتشابهة والتي لم تدخل في نطاق البحث، وتفيد هذه التعميمات في الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وفي التنبؤ بما يمكن أن يحدث للظواهر تحت ظروف معينة. وصياغتها في جمل قصيرة تتسم بالتعميم العلمي، يمكن أن نجد لها تطبيقات في عدة نواحي، وهذا الذي يقال له قانون أو قضية أو نظرية.

[1] - أبراش إبراهيم ، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية ، ص: 40 ، 41.
[2] - جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، ص: 308 ، 309.

محاضرة 3: مراحل تكون المنهج العلمي.

عندما نتكلم عن المنهج العلمي وتكونه فإن هذا يقودنا إلى الحديث عن تطور التفكير الإنساني عبر العصور، لأن المنهج العلمي الذي هو متعارف عليه اليوم ويتبعه الباحثون في أعمالهم من أجل الوصول إلى الحقائق العلمية لم يولد بين عشية وضحاها وإنما هو ثمرة جهود وأعمال السابقين الذين وضعوا لبناته الأولى منذ فجر البشرية، لذلك كان لزاما العودة إلى التاريخ لمعرفة مراحل هذا التطور، انطلاقا من العصور القديمة إلى العصر الوسيط فالعصر الحديث.

أ- في العصور القديمة:

ونقصد بالعصور القديمة العصور التي قامت فيه حضارات عريقة وخلفت آثارا دلت على عظمتها والتطور الفكري الذي وصلت إليه في تلك الفترة، ومن أهم تلك الحضارات نجد المصريون القدماء، وحضارات بلاد الرافدين، وحضارات الشرق الأقصى، بالإضافة إلى الإغريق والرومان، وقد تميز التفكير عندهم بمجموعة من الخصائص عبر عن روح ذلك العصر، وهي كما يلي:

بالنسبة للمصريين كان اتجاه التفكير لديهم عملي تطبيقي لتحقيق غايات نفعية، فقد برعوا في التحنيط والهندسة والحساب والطب والفلك والزراعة.

ارتباط التفكير بالدين والآلهة، وسيطرة الكهنة على جميع المجالات، وكان لهم نفوذ كبير حتى على الحياة العلمية، ولم يسمحوا لأحد من العامة أن يشاركهم في معارفهم، وكانت من الأسرار الخاصة بهم.

سجلوا معارفهم وعلومهم على الحجارة بالخط الهيلوغريفي، كما سجلوها على ورق البردي.[1]

ومع ذلك لم يتركوا لنا قوانين أو نظريات علمية تفسر الظواهر المختلفة، ولم ينظموا معلوماتهم تنظيما منهجيا سليما، أي أنهم لم يوفقوا في الوصول إلى فكرة العلم المنظم القائم على الملاحظة والتجريب. بالمفهوم العلمي الحديث.[2]

أما بالنسبة للإغريق، فقد برعوا هم كذلك في كثير من نواحي النشاط الإنساني، وبلغوا شأوا عظيما في العلوم، لكن كان تفكيرهم قائم على التأمل العقلي المجرد، فقد بحثوا في كل المسائل وفي كل العلوم

[1] أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، وكالة المطبوعات عبد الله حرمي ، الكويت ، ط6 ، ص: 74.

[2] - عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، ص: 57 ، 58.

ولكن نظريا وفلسفيا بعيدين عن التجريب والعمل. وهذا لطبيعة المجتمع اليوناني الذي كان مجتمعا طبقيا عبوديا، فقد نظر إلى العمل نظرة سلبية وأنه من شأن العبيد، لذلك كل دراسة بالنسبة إليهم تحتاج إلى التجربة كانت في نظرهم سوقية، ولعل تمييز أفلاطون في جمهوريته التي نظر لها، بين الفلاسفة والعمال ووضعه للفلاسفة في مرتبة قيادية تعكس هذا التفكير.

أما من ناحية المنهج والبحث وأسلوب التفكير، فإنا وجدنا أرسطو قد وضع قواعد المنطق الصوري القائم على القياس في الاستدلال، كما فطن للاستقراء ودعا إلى الاستعانة بالملاحظة، إلا أنه غلب على أفكاره وأبحاثه الطابع التأملي.[1]

كما اعتمد اليونان القدماء في بنائهم الفكري والعلمي على ما خلفه سابقوهم المصريين والبابليين، في الفلك والفيزياء والجغرافيا والهندسة والطب، كما بحثوا الأخلاق واهتموا بدراسة الآداب والأخلاق.

برز علماء وفلاسفة كثيرون خلدوا أسماءهم من خلال أبحاثهم واكتشافاتهم العلمية، أمثال فيثاغورس في الجغرافية الطبيعية والرياضيات والفلسفة، هيبوقراط في الطب ويسمى "أب الطب". وأرسطو، أرخميدس في الفيزياء والكيمياء وغيرهم.[2]

أما الرومان الذين كانوا ورثة المعرفة اليونانية، كانوا هم كذلك عمليين، لقد كانوا صناع قوانين ومهندسين أكثر مما كانوا متأملين مفكرين.[3]

ب- في العصور الوسطى: نقصد بالعصور الوسطى الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية وفترة عصر النهضة في أوروبا، في الفترة التي تمتد منذ حوالي القرن الثامن حتى القرن السادس عشر ميلادي، وسوف نبين اسهامات كل من الحضارة الإسلامية في تكون المنهج العلمي وتطوره، وفلاسفة وعلماء أوربا في عصر النهضة الذي واصلوا جهود علماء المسلمين ووصلوا به إلى مرحلة النضج والكمال.

- **إسهامات المسلمين:** بفضل الرسالة الجديدة رسالة الإسلام التي جاءت تحث على العلم وتشجع عليه وجعلته في مرتبة العبادة، نهض المسلمون إلى طلب العلم والبحث في مختلف المواضيع وابتكروا لأنفسهم

[1] - أحمد بدر ، المرجع السابق ، ص: 75.

[2] - نفسه ، ص: 75، 76.

[3] عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، ص: 58، 59. أحمد بدر ، المرجع السابق ، ص: 77.

منهجا علميا يوضح لهم الطريق في البحث والوصول إلى الحقائق العلمية، مستفيدين من الحضارات السابقة وما خلفته من معارف، فنقلوها إلى اللغة العربية وترجموها ونقحوها وقاموا بتطويرها.

ففي منهج البحث تجاوز الفكر العربي الحدود الصورية لمنطق أرسطو، حيث عارضوا القياس الصوري العقيم وخرجوا على حدوده واعتبروا الملاحظة والتجربة مصدرا للبحث والتقدم العلمي.

لقد اتبع العرب في انتاجهم العلمي أساليب مبتكرة في البحث، فاعتمدوا على الاستقراء والملاحظة والتدريب العلمي والاستعانة بأدوات القياس للوصول إلى النتائج العلمية. وقسموا المعرفة إلى نوعين رئيسيين، المعرفة المبنية على الاختبار والتجربة والمعرفة المبنية على التأمل والنظر،[1] كما اعتمدوا على مبدأ الشك والتجربة في البحث العلمي.[2]

ومن العلوم التي برزوا فيها الفلك والطبيعة والكيمياء والطب والرياضيات وغيرها، ونبغ علماء كثيرون منهم الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان، محمد بن موسى الخوارزمي، البيروني، وأبو بكر الرازي، وابن سينا والفارابي وغيرهم كثير..

لقد كانت المنهجية العلمية واضحة عند علماء المسلمين في مجال العلوم الكونية والتطبيقية فلم يقبلوا نظرية إلا بعد التثبت منها وسار علماء الإسلام في مختلف فروع المعرفة الإنسانية على أسس علمية تقرب من الأسس الحديثة بما احتوته من أسلوب التفكير العلمي والدقة والاستنتاج ما هو محل تقدير المنصفين من العلماء المعاصرين، وكذلك تميز التفكير الإسلامي بالموضوعية ودعا علماء الإسلام إلى الالتزام بالأمانة العلمية والتجرد الموضوعي والبحث عن الحقيقة. ويرى البيروني أن على الباحث الاستدلال بالمعقولات وقياس الآراء لمعرفة أصحاب النحل والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق وهي: العادة المألوفة، والتعصب والتضافر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة، وطالب الا يأخذ الباحث إلا ما يوافق العقل.[3]

وقد أثبتت الدراسات المقارنة للمنهج العلمي الحديث والمنهج الذي اتبعه علماء الإسلام في مجال العلوم الطبيعية والكونية، أن الطريقة والمنهج العلمي الحديث وأسلوب التفكير المنطقي توفر لدى علماء

[1] - ربحي مصطفى عليان ، البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته ، بيت الأفكار الدولية ، عمان ، ص: 12.

[2] - محمد زيان عمر ، البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، مطبعة خالد حسن الطرابيشي ، جدة ، 1975 ، ص: 20.

[3] - محمد زيان عمر ، المرجع السابق ، ص: 20.

المسلمين في بحوثهم واكتشافاتهم العلمية في مجال الكيمياء والطب والصيدلة ومجال لالعلوم الكونية وبقية فروع العلوم التطبيقية.[1]

وقد قال أحد علماء الغرب الدكتور "سارتون" Sarton وهو من العلماء الأمريكان يبين فضل العرب على العالم في التقدم العلمي ".. لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوربية (القرن الرابع عشر) من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد". أو ما ذكرته زيغريد هونكه Sigrid Honke في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" فهو دليل أيضا على التطور العلمي الذي وصل إليه المسلمون وهم في أوج الحضارة والرقي.

لقد ساهم العرب بشكل كبير في إرساء قواعد البحث العلمي، وتحديد المنهج الاستقرائي تحديدا دقيقا، فنظروا له وطبقوه في أعمالهم وأبحاثهم ووصلوا على نتائج علمية هامة في كثير من العلوم.[2]

- **إسهامات فلاسفة وعلماء أوروبا:**

نتيجة احتكاك الأوربيين بالمسلمين واطلاعهم على التراث العلمي الذي أنتجوه والتقدم الذي وصلوا إليهم في جميع شؤون الحياة، واستيلائهم على هذا التراث في أعقاب ضعف العالم الإسلامي ودخوله عصر الانحطاط والصراع الداخلي، استطاع الأوربيون أن يقيموا نهضتهم ويؤسسوا لقيام حضارة جديدة هي الحضارة الغربية، والتي كانت قبل ذلك في عصر الظلام والجهل وسيطرة رجال الكنيسة وغياب الحرية الفكرية.

وفي مقدمة من أرسى دعائم التفكير والبحث العلمي في أوربا نجد روجر بيكون (1214- 1294م) وليوناردو دا فينشي (1452- 1515م) وغيرهما ممن دعوا إلى استخدام المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجريب واستعمال أدوات القياس للوصول إلى الحقائق العلمية الصحيحة وعارضوا المنطق الصورى الأرسطي. إلا أنهم لم يستخدموها إلا في حدود ضيقة لاستمرار سلطة الكنيسة التي كانت جاثمة على حياة الناس وعلى عقولهم. فقد عانى كثير من العلماء نتيجة أفكارهم وأبحاثهم العلمية التي خالفوا بها رأي الكنيسة، منهم كوبرنيكوس الذي تعرض للتعذيب والاضطهاد الكنسي، ما اضطره إلى العدول عن أفكاره والنظريات التي توصل إليها، كمركزية

[1] - نفسه ، ص: 21.

[2] - أحمد بدر ، المرجع السابق ، ص: 78 ، 79 ، 80.

الشمس التي تخالف ما كان معتقدا بأن الأرض هي المركز والكواكب تدور حولها، وكذلك غاليلي غاليليو الذي اتهم بالكفر وحكم عليه بالاعدام، ..[1]

- **في العصر الحديث:**

ويبدأ هذا العصر من القرن السابع عشر إلى وقتنا المعاصر، وفي هذه الفترة اكتملت دعائم التفكير العلمي في أوروبا، أو كادت، وظهر علماء وفلاسفة أسسوا للمنهج العلمي في شكله المتطور والتام الأركان، منهم فرنسيس بيكون، جون ستيوارت مل وكلود برناد، إيمانويل كانط، ديكارت وغيرهم.[2]

انتقد فرنسيس بيكون المنطق الأرسطي انتقادا شديدا، ودعا إلى استخدام التجربة التي يعتبرها المعلم الصادق، والوسيلة الناجعة لفهم ظواهر الحياة، وقد وضع كتابه "الأورغانون الجديد" أي المنطق الجديد أو الأداة الجديدة للعلوم سنة 1620م، ليفصل فيه قواعد المنهج التجريبي وخطواته، وقام ببيان الأخطاء الشائعة التي تعوق البحث العلمي وهي:

- أخطاء تعود على ضعف العقل الإنساني، الذي تغلب عليه الأوهام والأهواء التي تنشأ في نفسه، أو ينشئها المجتمع.
- أخطاء تعود إلى اللغة التي يتعامل بها الفرد مع الآخرين، وعجزها عن التعبير الدقيق عن المعاني المقصودة.
- الثقة العمياء فيما يقوله العلماء والتسليم بها دون نقد أو تمحيص.[3]

كما أوضح بيكون أصول المنهج التجريبي الصحيح، وبين خطواته كما يلي:

1- جمع الحقائق التي هي المادة الأولى للبحث العلمي وأساس المنهج الاستقرائي.

2- تقسيم الحقائق المتجمعة إلى طوائف منفصلة وقوائم متميزة، وهي قائمة الحضور، وقائك الغياب، وقائمة التفاوت في الدرجة.

3- القيام بعملية مقارنة بين القوائم المتجمعة والموازنة بينها لاستنتاج الخصائص الذاتية للظواهر المدروسة.

4- التحقق من النتائج وإثبات صحتها أو خطئها.[1]

[1] - عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص: 62. أحمد بدر ، المرجع السابق ، ص: 80.
[2] - أحمد بدر ، المرجع السابق ، ص: 80 ، 81.
[3] - عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص: 63.

وباختصار يمكن القول أن بيكون وفق في وضع المبادئ المنهج التجريب، اتبعه فيه من داء بعده من العلماء مثل جون ستيوارت ميل، وكلود برنارد، وعلى أيديهم نضج المنهج التجريبي، وأصبح دعامة أساسية في البحث العلمي.

كان هذا عرض لمراحل تطور المنهج العلمي عبر العصور، والذي بينا فيه تطور الفكر البشري وكيف انتقل من مرحلة إلى مرحلة مستفيدا من معارف ومناهج السابقين حتى تم بلورة منهج علمي واضح المعالم يسير عليه كل من يلج باب البحث والاستكشاف، وقد استفادت البشرية من هذا التطور في المنهج من خلال الاختراعات والاكتشافات التي توصل إليها العلماء سهلت الكثير من الصعوبات التي كان يعانيها الانسان في الماضي، كما توصل إلى حل كثير من المشاكل التي كانت تعترضه في المجالات الإنسانية والاجتماعية، وذلك كله بفضل المنهج العلمي.

[1] - أبراش إبراهيم ، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2009 ، ص: 68 ، 69. عبد الباسط حسن ، نفسه ، ص: 63 ، 64.

المحاضرة 4: الدعوة إلى استخدام المنهج العلمي

في الدراسات الاجتماعية والإنسانية

حاول أعلام الفكر الإنساني في مختلف العصور التاريخية دراسة كثير من المسائل الاجتماعية، إلا أنهم اقتصروا على التفكير الفلسفي والقياس المنطقي في الحكم على الأمور، وتفسير ما يحيط بهم من ظواهر الحياة

ولم تكن هذه المحاولات سوى مراحل في تطور العلوم الاجتماعية. فالعلم الحديث لا يقنع بتلك الوسائل والأساليب التي اتبعها المفكرون الأقدمون في الدراسة والبحث، وإنما يعتمد على أسلوب الاستقراء القائم على الملاحظة والتجريب للوصول إلى قوانين عامة تكشف عن أنواع العلاقات القائمة بين مختلف الظواهر.

ولما كانت العلوم الطبيعية هي التي بدأت باستخدام المنهج العلمي، وساعدها ذلك المنهج على فهم كثير من الظواهر الطبيعية، وهيأ لها السبيل للسيطرة على قوى الطبيعة، وتسخيرها لخدمة الإنسانة، فقد نادى كثير من المفكرين الاجتماعيين بضرورة استخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية للوصول إلى نتائج مماثلة تساعد على فهم ظواهر الاجتماع.

وكان من نتيجة هذه الدعوة أن اتجه عدد من الباحثين والعاملين في الميدان الاجتماعي إلى استخدام الأسلوب العلمي في دراسة المجتمع، وما ينبعث عنه من ظواهر وما يحدث فيه من مشكلات. وقد ترتب هذه الدراسات تقدم الأساليب العلمية المستخدمة في البحوث الاجتماعية، والوصول إلى مجموعة من القوانين والنظريات في ميدان الدراسات الاجتماعية.[1]

عبد الرحمن بن خلدون

732هـ-808هـ/ 1332م- 1406م

يعتبر ابن خلدون أول عالم يدعو في صراحة ووضوح إلى ضرورة استخدام المنهج العلمي في دراسة المجتمع، حيث كان يعتقد المفكرين الاجتماعيين قبل ابن خلدون أن الظواهر الاجتماعية خارجة عن نطاق القوانين ولا تخضع إلا لصانعيها من قادة وزعماء ودعاة الإصلاح، ولهذا لم يكن من الممكن دراستها بنفس الطريقة التي تدرس بها الظواهر الطبيعية.

[1] - عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص: 73.

وجاءت دعوة ابن خلدون إلى تطبيق المنهج العلمي عندما حاول دراسة التاريخ دراسة علمية منظمة، فاهتدى إلى ضرورة وضع علم جديد يدرس العمران ونظمه دراسة علمية صحيحة، والذي سماه "علم العمران" وحدد القواعد المنهجية التي يجب اتباعها في دراسة المجتمع. وبذلك يكون قد وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع الحديث.

بدأ ابن خلدون دراسته بنقد الطريقة التقليدية السائدة في عصره في كتابة التاريخ، حيث رأى أن الروايات التاريخية التي ذكرت عن الماضي ليست جميعها صحيحة، فمنها ما وقع فعلا، ومنها الزائف ومنها ما يستحيل وقوعه لأنها تتعارض مع طبائع الأشياء، ورد هذه الأخطاء إلى جملة من الأسباب وهي على النحو التالي:

- الأمور الذاتية: حيث غلبت على الروايات التاريخية الأهواء والميولات والأهداف الشخصية، أو ميول وأهواء من ينقل عنهم. وفي ذلك يقول:" فإنّ النّفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنّظر حتى يتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله."[1] وعلاجها تجرد نفس الباحث من الهوى
- الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى الجرح والتعديل، وعدم الثقة بالناقلين، وعم التسليم بما يكتبون تسليما مطلقا.
- الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب.
- توهم الصدق، وسببه الثقة بالناقلين.
- الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما بداخلها من التلبيس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه.
- تقرب العلماء لأصحاب المراتب العالية من أجل الجاه والثروة، يؤدي بهم إلى قلب الحقائق وتزييفها.
- الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية فالإلمام بطبائع العمران وأحواله من الأمور الضرورية لمعرفة حقيقة الحوادث وتمحيصها، فكل حادث لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض من أحواله، فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب.

[1] - ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، ص329.

- الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية كظواهر الفلك والكيمياء والطبيعة وحيوان والنبات وغيرها، وعلاج هذا يكون بمعرفة القوانين التي تحكم الطبيعة، واستبعاد كل ما يتنافى مع هذه القوانين.[1]

بعد هذا النقد للطرق التقليدية السائدة في عصره، يقدم ابن خلدون منهجه وطريقته في دراسة الظواهر الاجتماعية القائم على الملاحظة والمنهج المقارن، وفيما يلي خطوات المنهج الخلدوني:

1- ملاحظة الظواهر ملاحظة مباشرة، وقد توصل إلى هذه الطريقة من خلال أسفاره الطويلة وملاحظته للمجتمعات التي اتصل بها، مكنته من استقراء كثير من الظواهر.
2- تعقب الظاهرة الواحدة في تاريخ الشعب الواحد في مختلف الفترات التاريخية مع تحري صدق الروايات التاريخية، وقياس الظاهرة على أصول العادة وطبائع العمران.
3- مقارنة الظاهرة بغيرها من الظواهر المرتبطة بها في نفس المجتمع وفي غيرها من المجتمعات. وقد أدرك ابن خلدون أهمية الدراسة المقارنة نظرا لكثرة أسفاره واختلاف البلاد التي عاش فيها من النواحي الجغرافية والطبيعية والاجتماعية.
4- الاهتمام بدراسة الجوانب الديناميكية (الحركية، التطورية) للظواهر الاجتماعية إلى جانب العناية بدراسة الجوانب الاستاتيكية (الثابتة والمستقرة).
5- والمرحلة الأخيرة هي القيام بعملية البحث عن العلل من أجل الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم الظواهر المختلفة.

هذه هي الخطوات التي وضعها ابن خلدون من أجل دراسة الظواهر الاجتماعية، وهو منهج علمي قوامه الاستقراء والموضوعية، وهو منهج شامل لدراسة الظاهرة الاجتماعية في جميع مستوياتها. [2]

فيكو الإيطالي (1668– 1774م)

Gianbatista Vico

هو الآخر دعا إلى استخدام منهج علمي مشابه للمنهج الذي حدد قواعده العلامة ابن خلدون، فبدأ بمقد الطريقة التقليدية التي كانت سائدة في عصره، ثم نصح باستخدام المنهج الاستقرائي والمقارنة في دراسة ظواهر المجتمع، اتفق مع ابن خلدون في اعتقاده بأن الظواهر الاجتماعية تسير وفقا لقوانين كظواهر الطبيعة تماما.

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 74، 75، 76. ،
[2] - ابن خلدون ، المقدمة. عبد الباسط ، نفسه ، ص: 76، 77.

وقد اهتم بفلسفة التاريخ فانصرف إلى دراسة الوثائق الخاصة بالحوادث التاريخية والعقائد الدينية والتقاليد التشريعية، والعادات واللغات التي كتبت بها هذه الوثائق، وأوضح هذه الأفكار في كتابه الذي عنونه: العلم الحديث La science Nouvelle دعا فيه إلى:

- استنباط النظريات من الحقائق التاريخية.
- تطبيق منهج العلوم الطبيعية (المنهج التجريبي) على دراسة الظواهر الاجتماعية.
- وباستخدام المقارنة لاستنباط القوانين.
- أجاز الاستدلال بما هو معروف عما هو مجهول.

ولا شك أن ابن خلدون كان أسبق من فيكو في تحديد قواعد المنهج العلمي الصحيح في الدراسات الاجتماعية، وفي اعتقاده بمبدأ الجبرية (الحتمية) الاجتماعية. وامتاز ابن خلدون عنه أيضا في أنه فطن إلى تأثير الظواهر الاجتماعية بعضها في بعض، وإلى وجود عوامل أخرى تؤثر في فيها كالعوامل الجغرافية والمناخية، والعوامل النفسية والفردية. ولذا يقول عالم الاجتماع الأمريكي وارد:" كانوا يظنون أن أول من بشر وقال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو أو فيكو مع أن ابن خلدون قد قال بذلك، واثبت خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة."[1]

أوغست كونت

1798– 1857م

الفيلسوف الفرنسي، صاحب الفلسفة الوضعية (العلمية)، كان من بين الفلاسفة الذين دعوا إلى استخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية، منهج قائم على الوصف والتحليل المنظم لمعرفة القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

وجاءت هذه الدعوة بعد تطبيق المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية ونجاحه والذي أتى بثماره من خلال النظريات والقوانين التي توصلت إليها هذه العلوم، وأصبح بالإمكان التحكم في الظواهر الطبيعية واستخدامها لصالح الإنسان. فجاءت الفكرة بأنه يمكن تطبيق المنهج العلمي التجريبي في الدراسات الاجتماعية، التي هي

[1] - عبد الباسط ، المرجع السابق ، ص: 78.

الأخرى لها قوانينها التي تحكمها، وباستخدام المنهج العلمي يمكن التوصل إلى معرفتها وفهم الظاهرة الاجتماعية وتفسيرها والوقوف على عللها والعوامل التي تؤثر فيها.[1]

ولفهم الظواهر الاجتماعية على الطريقة الوضعية لا بد من توفر شرطين:

الأول: أن تكون هذه الظواهر خاضعة لقوانين عامة، ولا تسير حسب الأهواء والمصادفات، ورأى كونت أن هذا الشرط متوفر.

الثاني: معرفة الناس لهذه لقوانين، وذلك لن يكون إلا بقيام الباحثين بالكشف عنها وتعريف الناس بها. ولن يتم ذلك إلا بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية منظمة. ورأى كونت أن معرفة المنهج الوضعي لا تكتسب إلا عن طريق الخبرة العملية، ولذا فمن الواجب على الباحث أن يكون نفسه تكوينا صحيحا عن طريق التربية العلمية الكاملة مبتدئا بالرياضة (الرياضيات) التي تشعره بالفكرة الوضعية حتى ينتهي إلى علم الحياة الذي يعلمه منهج المقارنة.

كما قسم كونت ظواهر الاجتماع إلى شعبتين كما فعل ابن خلدون، وهما:

- الاستاتيكا الاجتماعية، وتختص بدراسة المجتمع الإنساني في تفاصيله ومن ناحية استقراره، مثل الأسرة نظم الحكم، النظم الاقتصادية، الاجتماعية..
- الديناميكا الاجتماعية، وتختص بدراسة المجتمع الإنساني في حالته التطورية.

أما القواعد المنهجية اللازمة لدراستهما فهي:

- بالنسبة للحالة الأولى الثابتة طالب كونت بأن تكون القاعدة المنهجية الأساس هي النظر إلى ترابط الظواهر الاجتماعية، والبحث عن قوانين التضامن الاجتماعي. حيث لا فائدة من دراسة أي نظام اجتماعي في معزل عن غيره من النظم، فهي مترابطة متصلة بعضها ببعض.
- أما بالنسبة للحالة الثانية المتغيرة وفي حالتها التطورية وهي أهم من الأولى من حيث الدراسة، لأن هذه تعتمد على الأولى إلى حد كبير، ولا يمكن الوصول إلى القوانين الاستاتيكية إلا بعد معرفة اقوانين

[1] - أبراش إبراهيم ، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية ، ص: 71 ، 72.

الديناميكية التي تخضع لها الظواهر. **ويكون المنهج المعتمد في الدراسة هو الملاحظة والتجربة والمنهج المقارن والطريقة التاريخية للوصول إلى القوانين المتعلقة بالجانب الديناميكي.**[1]

إميل دوركايم

1858– 1917م

يعتبر إميل دور كايم زعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع، والتي أثرت وما تزال تؤثر في توجيه البحوث الاجتماعية، وقد اهتم دور كايم بتحديد مناهج البحث التي ينبغي استخدامها في الدراسات الاجتماعية. ويعتبر كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع" من خير ما كتب في هذا الميدان.

وقد ابتدأ دور كايم عمله بتعريف الظاهرة الاجتماعية وتحديد خواصها، التي جعلها خاصيتين رئيسيتين هما:

- القهر: فالظاهرة الاجتماعية تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد شاء أم أبى، والفرد يستسلم لهذا القهر بمحض اختياره. ومما يدل على ذلك أن الفرد إذا حاول الخروج على إحدى الظواهر الاجتماعية فإنها تتصدى لمقاومته بصور مختلفة، كالعقاب (مادي أو معنوي) الذي يتعرض له الفرد من طرف المجتمع عند ارتكابه أي فعل يرفضه المجتمع، فهو يمارس نوعا من الرقابة على سلوك المواطنين.
- والموضوعية: فالظواهر الاجتماعية لها وجود مستقل خارج شعور الفرد وهي سابقة لوجوده، بمعنى أن الأفراد منذ ولادتهم يخضعون لنظم وظواهر اجتماعية سابقة على وجودهم في الحياة.

وقد طالب بتطبيق قواعد المنهج الاستقرائي في الدراسات الاجتماعية ووضع قواعد خاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية أهمها:

1- يجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء. وطلك بالتخلص من طريقة المعاني الشائعة والأفكار غير الممحصة. لأن المعاني أو المدركات الكلية لا تقوم بحال من الأحوال مقام الأشياء نفسها. وقد تنشأ بطريقة غير علمية. وبهذه الملاحظة تتحقق موضوعية الظاهرة وشخصيتها العلمية.

2- يجب على الباحث الاجتماعي أن يتحرر من كل فكرة سابقة عن الظاهرة التي يدرسها. وهي قاعدة أساسية لكل طريقة علمية.

[1] - عبد الباسط ، المرجع السابق ، ص: 80، 81.

3- من الواجب ان ينحصر موضوع البحث في طائفة خاصة من الظواهر التي سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها، ومن الواجب أن ينصب البحث على كل الظواهر التي تتوفر فيها شروط ذلك التعريف.

4- يجب على الباحث الاجتماعي عند بدئه في دراسة طائفة خاصة من الظواهر الاجتماعية أن يبذل جهده في ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التي تبدو فيها مستقلة عن مظاهرها الفردية. وتنص هذه القاعدة على الاعتماد فقط على المدركات الحسية التي تنطوي على الطابع الموضوعي.[1]

هذه القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية. أما من ناحية القواعد الخاصة بتفسير الظواهر الاجتماعية فتتلخص فيما يلي:

- البحث عن السبب الفعال الذي يدعو إلى وجود هذه الظاهرة والوظيفة التي تؤديها كل على حدة بشكل منفصل.
- تفسير الظاهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية مثلها وليس فردية، ووظيفة الظاهرة الاجتماعية لا يمكن إلا أن تكون اجتماعية. وتعود على المجتمع بالفائدة.

وبالنسبة للبرهنة في دراسة الظواهر الاجتماعية فيرى دور كهايم أن طريقة المقارنة هي الطريقة الوحيدة التي تتناسب مع طبيعة الظواهر الاجتماعية...

هذه نماذج لعلماء، وغيرهم كثير، دعوا إلى استخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية، وقد اجتهد كل حسب ما توفر له من علم وتوصل إليه فكره، ووضع الأسس لمنهج علمي يستخدم في مجال الدراسات الاجتماعية، ثم يأتي من بعده ليتم ما توصل إليه، وهكذا إلى أن وصلنا إلى مرحلة استقلت الدراسات الاجتماعية وأصبحت علوما قائمة بذاتها لها منهجها العلمي الخاص بها والذي يتناسب مع طبيعتها، وتخصصات جامعية ينتسب إليها الطلبة ويدرسون مناهجها ويبحثون وفق أطرها العلمية الأكاديمية.[2]

[1] - أبراش إبراهيم ، المنهج العلمي وتطبيقاته ، ص: 72 ، 73. عبد الباسط حسن ، المرجع الساب ، ص: 84 ، 85 ، 86.
[2] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 87 ، 88.

محاضرة 5: المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية والإنسانية

بعد الدعوة إلى استخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية، ظهرت دعوات معارضة له بحجة صعوبة تطبيق هذا المنهج في مثل هذه الدراسات، ووجود عقبات كثيرة تحول دون تطبيقه والوصول إلى نتائج علمية دقيقة فيه كما حدث في العلوم الطبيعية التي طبقت المنهج العلمي ونجحت في ذلك.

وفيما يلي عرض لأهم الاعتراضات التي وجهت لاستخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية، وكيف رد عليهم:

1- تعقد الظاهرة الاجتماعية:

تخضع الحياة الاجتماعية لعدد كبير من المؤثرات النفسية والطبيعية والثقافية والاجتماعية. فالجماعات البشرية تتكون من مجموعات من الأفراد يختلفون فيما بينهم من النواحي النفسية، كما أنهم يتأثرون بالوسط الطبيعي الذي يعيشون فيه ويخضعون للمؤثرات الجغرافية كالموقع والسطح والمناخ والموارد، ثن إنهم يتأثرون في نفس الوقت بالظروف الثقافية والاجتماعية التي تسود مجتمعهم كالعرف والتقاليد وأنظمة الحكم ونماذج العلاقات الاجتماعية التي تحددها المكانات والطبقات الاجتماعية. ولذا فإن الظواهر الاجتماعية التي تنبثق في الجماعة من اجتماع الأفراد، ومن تبادل آرائهم ووجهات نظرهم، وانصهار رغباتهم وإرادتهم الخاصة تبدو في نظر المعارضين غاية في التعقيد وعدم الوضح بحيث يصعب فهمها، واكتشاف القوانين العامة التي تحكمها، واكتشاف القوانين العامة التي تحكمها.[1]

2- استحالة إجراء التجارب في العلوم الاجتماعية:[2]

يرى المعرضون لمبدأ تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية أن استخدام التجارب فيها أمر مستحيل، فالتجارب، في نظرهم، تقوم على مبادئ أساسية أهمها التحديد والضبط والتحكم من جانب الباحث أو بعبارة أوضح يقوم الباحث في العلوم بتحديد عناصر الظاهرة التي يريد دراستها ويعمل على عزلها عن غيرها من العناصر، ثم يتحكم فيها صناعيا حتى يمكنه ن يتوصل إلى تحقيق الظروف المتماثلة مرة أخرى على اعتبار أن عوامل الزمان والمكان ثابتة ولا تتغير. ولما كان المنهج التجريبي يعتمد على الفكرة القائلة بأن

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 97. أبراش ، المرجع السابق ، ص: 84. منذر عبد الحميد الضامن ، أساسيات البحث العلمي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2007م/1427ه ، ط1 ، ص: 21 ، 22.

[2] - منذر الضامن ، نفسه ، ص: 22.

الأمور المتماثلة تحدث في الظروف المتماثلة، فإن هذا المنهج، في رأيهم، يمتنع تطبيقه في العلوم الاجتماعية، لأن الظواهر الاجتماعية فردية فريدة في نوعها، ولا تتكرر بنفس الصورة. وحتى إن أمكن تطبيقه، فهو منهج عديم النفع، لأنه ما دامت الظروف المتماثلة لا تتحقق إلا في حدود ضئيلة، فلن يكون لأية تجربة تجرى في الدراسات الاجتماعية إلا دلالة محدودة جدا.

كما أن الباحث في العلوم الاجتماعية "حين يحلل ويحدد ويفرد، لابد من أن ينتزع عناصر من موقف كلي عام، تتداخل فيه العناصر المكونة وتتشابك." وعلى هذا فإن عزل العناصر من شأنه أن يجردها من دلالتها الاجتماعية والتاريخية، ويجعلها غير ذات معنى

وردنا على هذه الاعتراضات أنه ليس من الضروري أن يكون ثمة تحكم من جانب الباحث في التجربة التي يجريها، فكما توجد التجارب الصناعية التي تتم في المختبر العلمي، توجد التجارب التي تخلقها الطبيعة والتي يسعى الانسان إلى تهيئتها، أو خلق الظروف اللازمة لها.

ثم إن التاريخ حافل بكثير من الحالات التي يستطيع الباحث أن يتخذها مادة لتجاربه، فالثورات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية والاضطرابات الداخلية يمكن أن تكون مجا خصبا لكثير من التجارب التي لا تقل في أهميتها عن التجارب التي يقوم بها العالم الطبيعي. ومن الممكن أن يلجأ الباحث إلى المقارنة بين عدد من المجتمعات الإنسانية في مختلف مراحل تاريخها، وفي وسعه أن يقارن بين المجتمعات المثالية وبين المجتمعات العادية، كما يمكنه أيضا الاستفادة بالتجارب التي تجريها الدول بقصد التطبيق العلمي لمنهج إصلاحي أو نظام اقتصادي أو سياسي معين.[1]

أما عن الرأي القائل بأن المنهج التجريبي لا يمكن تطبيقه في العلوم الاجتماعية لأننا لا نستطيع تحقيق الظروف التجريبية المتماثلة تماما مرة بعد مرة فهو مردود على قائليه، لأنه قائم على سوء فهم للمنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، فمن المعروف للعلماء الطبيعيين أنه قد تحدث في التجارب الطبيعية أمور مختلفة في ظروف تبدو متماثلة تماما. وهذا يتوقف على نوع التجربة التي نريد اجراءها، لنتمكن من معرفة الظروف لاتي تخضع لها الظاهرة المدروسة. والقول بوجود اختلافات بين الفترات التاريخية لا يلزم عنه استحالة القيام بالتجارب الاجتماعية، وإنما ينبغي علينا أن نستمر في إجراء التجارب على أن نتوقع مواجهة النتائج المفاجئة أو التي لا تتفق مع ما كنا نتوقعه.

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 99. أبراش ، المرجع السابق ، ص: 85 ، 86.

أما عن القول بفردية الظواهر الاجتماعية فإننا نسلم بأن موضوع كل ظاهرة فريد في نوعه. فمثلا ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 في الجزائر لم تحدث إلا مرة واحدة في التاريخ وفي مكان واحد وهو الجزائر، إلا أن العوامل التي أدت إلى قيامها والظروف التي تحكمت فيها، والتغييرات التي أتت بعدها تكررت في كثير من المجتمعات، ومن الممكن دراسة هذه الثورات جميعا والوصول إلى القوانين العامة التي تؤثر في قيامها أو تطورها.[1]

3- تعذر الوصول إلى قوانين اجتماعية:

المعرفة المحصل عليها نتيجة البحث لا تذهب سدى بل تصاغ في قوانين ونظريات، تساعد على التنبؤ، وتفسر بها ظواهر اجتماعية مشابهة، لهذا يرى المعارضون لمبدأ تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية أن الوصول إلى قوانين اجتماعية تشبه في دقتها العلوم الطبيعية أمر بعيد المنال لعدة أسباب أهمها:

- خضوع المجتمعات المختلفة للتغير الاجتماعي المستمر، ولذا فإن الظروف المتماثلة لا تظل على حالها فقط خلال الفترات التاريخية المختلفة، ومن ثم لا يوجد في المجتمع اطراد طويل الأمد يصلح أن يكون أساسا للتعميمات البعيدة المدى.
- عدم خضوع الظواهر الاجتماعية لمبدأ الحتمية الذي تخضع له الظواهر الطبيعية وذلك بسبب الحرية التي يتمتع بها الانسان، يستحيل معها التنبؤ بسلوكهم الاجتماعي ووضع مبادئ عامة لهذا السلوك. ولا يمكن باصطناع هذه المبادئ اكتشاف أنماط سلوكهم الماضية والمستقبلية.
- مما يزيد من صعوبة وضع قوانين تساعد على التنبؤ الصحيح في العلوم الاجتماعية ذلك التأثير المتبادل بين التنبؤات والحوادث المتنبأ بها.[2]

وللرد على هذه الاعتراضات

- أن سرعة التغير الاجتماعي لا تتعارض مع كون الظواهر الاجتماعية تسير وفقا لقوانين ثابتة من الممكن اكتشافها والوصول إليها. ثم إن التغير الاجتماعي لا ينبغي أن يصرفنا عن البحث العلمي بل ينبغي أن يحفزنا إلى ابتداع مناهج وأساليب متنوعة تختلف عن المناهج والأساليب التي يستعان بها في دراسة المجتمعات المستقرة نسبيا.

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 100.

[2] أبراش ، المرجع السابق ، ص: 86 ، 87. عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 101.

- أما عن مبدأ الحتمية، فإننا نرى أن الأفراد في المجتمعات لا يتصرفون بطريقة عشوائية، وإنما يخضعون لمؤثرات البيئة الطبيعية والاجتماعية والثقافية، وهذه المؤثرات تجعلهم يسلكون سلوكا معينا لا يمكنهم أن يحيدوا عنه. وقد دلت البحوث على أن الأفراد في المجتمعات المختلفة لا يمكنهم أن يتحرروا من قوة العادات والتقاليد بالصورة التي تجعل كلا منهم يواجه التأثيرات والقوى الاجتماعية الخارجية بمفرده وإنما يتصرف باعتباره عضوا في جماعة لها معاييرها وقيمها وقوانينها التي لا يمكنه أن يحيد عنها. رأي دوركايم (القهر الاجتماعي). لذا يمكن القول أن مبدأ الحتمية متوفر في الميدان الاجتماعي كما هو متوفر في الميدان الطبيعي، وأن من الممكن الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتي تساعد على التنبؤ بما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة.
- أما عن التأثير المتبادل بين التنبؤات والحوادث المتنبأ بها وإمكان تغيرها، فإنه من شروط القانون العلمي ألا يكون مطلقا، وإنما يشترط لحدوثه توافر ظروف معينة. فإذا تغيرت الظروف فإننا نكون بصدد حالة جديدة غير التي نص عليها القانون. وتغير الظروف لا يغير من صحة القانون في شيء، بل يظل صحيحا وصادقا.[1]

4- بعد الظواهر الاجتماعية عن الموضوعية:

يرى المعارضون لاستخدام المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية أن الظواهر الاجتماعية مرتبطة بالجانب الذاتي للإنسان، ولا يمكن دراستها بالطرق الموضوعية. لأن الباحث الاجتماعي فرد من المجتمع يعيش فيه، ويتفاعل مع أوضاع الحياة القائمة فيه، ويؤثرون ويتأثرون بما يقومون بدراسته، ويقبلون ألوانا معينة من أساليب التفكير والسلوك القائمة في مجتمعاتهم، ومن هنا يذهب المعارضون إلى أننا ينبغي أن نتوقع أن آراء الباحثين ونظرياتهم ستتأثر بمصالحهم وأوضاعهم الاجتماعية، وبسمات العصر الذي يعيشون فيه. ولذا فإن من العسير في نظرهم، تحقق الموضوعية وضمانها في الدراسات الاجتماعية.

ويمكن اجمال العوامل التي قد تبعد الباحثين عن الموضوعية فيما يلي:

تأثير الدوافع الخاصة، تأثير العادة، تأثير الموقف الاجتماعي، وتأثير قيم الأفراد فيما يقومون بدراسته. فالدوافع الخاصة كثيرا ما تلون نظرة الانسان إلى الأمور، فتجعله يتعصب لأفكاره ومعتقداته، أو يتحيز لرأي دون آخر مبتعدا عن الحقائق الموضوعية التي يسفر عنها البحث العلمي. أما عن تأثير العادة، فإن كثيرا من المعتقدات التي تنتشر في المجتمعات لا تقوم على أساس علمي صحيح، وبالرغم من ذلك فإن

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 101 ، 102.

الأفراد يقبلونها بحكم العادة ويسلمون بها دون نقد أو تمحيص، وقد يصعب على الباحث الاجتماعي أن يجرد نفسه من تأثيرها أو يكتشفها لشدة ذيوعها والتسليم المطلق بصحتها. أما عن تأثير الموقف الاجتماعي، فإن المركز الذي يشغله الإنسان، والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والعصر الذي يعيش فيه، هذه المواقف وغيرها قد تؤثر فيما يصل إليه الباحث من نتائج أو فيما يصدره من أحكام. أما عن تأثير القيم، فإن الباحث الاجتماعي لا يمكنه أن يتجاهل قيمه وهو بسبيل البحث عن الحقائق. وكثيرا ما ينظر إلى الظاهرة التي يقوم بدراستها لا كما هي، ولكن على الوجه الذي يريدها عليه. ومما لا ريب فيه أن الباحث حينما يتجه إلى دراسة ما هو مرغوب فيه، يغفل كثيرا من الحقائق الموضوعية المتعلقة بالحياة الاجتماعية. ولذا يرى المعارضون لمبدأ تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية أن الموضوعية في العلوم الاجتماعية أقرب إلى أن تكون مثلا أعلى من أن تكون حقيقة واقعة. وتقول إحدى الباحثات أن العلماء الاجتماعيين يهدفون إلى تحقيق غاية غريبة. فهم يريدون أن يكونوا موضوعيين في مجال يمثل الجانب الذاتي من الحياة.

والواقع أن الموضوعية المطلقة أمر عسير التحقيق في البحوث الاجتماعية. غير أن المعارضين يبالغون في تقدير أثر العوامل الذاتية في الدراسات الاجتماعية. فقد أمكن الوصول فعلا إلى عدد كبير من القوانين والنظريات العلمية في الميدان الاجتماعي، ولا يمكن القول بأنها كانت قائمة على تحيزات شخصية، أو أن أصحابها كانوا يغلبون الجانب الذاتي على الجانب الموضوعي في دراساتهم.

وتتوقف الموضوعية في البحث الاجتماعي على ضمير الباحث العلمي، ورغبته في إظهار الحقائق كما هي دون تحيز لرأي، أو تعصب لمذهب معين، وكلما تمرن الباحث الاجتماعي على إجراء البحوث الاجتماعية تحررت نظرته إلى الأمور، وابتعد عن التحيز. ثم إن التقدم المطرد في وسائل القياس الاجتماعي، سيجعل من اليسير الاتجاه بالدراسات الاجتماعية وجهة موضوعية خالصة، وجعلها أقرب إلى التعبير عن الحقائق الواقعية مما هي عليه الآن، ويرى جيبسون أن حرية الرأي هي الضمان الأكيد للموضوعية، فعن طريقها يستطيع الناقد أن يخضع جميع الآراء والنظريات للنقد والتمحيص دون تمسك بوجهة نظر معينة، ودون تأثر بالعوامل الانفعالية والمواقف التي كان يعيش فيها الباحث، والتي تجعله يتمسك بوجهة نظره عنها ويرى فيها الكمال مهما بدا فيها من قصور.[1]

[1] - عبد الباسط حسن ، المرجع السابق ، ص: 102 ، 103. أبراش ، المرجع السابق ، ص: 87 ، 88.

5- عدم دقة المقاييس الاجتماعية:[1]

يرى البعض أن العلوم الطبيعية تخضع للقياس الكمي الذي يساعد على التنبؤ الدقيق بخلاف العلوم الاجتماعية التي يغلب عليها الطابع الكيفي. وتتميز النواحي الكمية على النواحي الكيفية في أن الأخيرة تكشف عن وجود الصفة ومدى اختلافها عن الصفات الأخرى، بينما تكشف الأولى عن مقدار وجود الصفة أو مستواها. فإذا قلنا مثلا أن الجوانب المادية للثقافة تتغير بسرعة أكبر من الجوانب المعنوية، فإن هذا القول يعبر تعبيرا كيفيا عن الاختلاف في سرعة التغير دون أن يعبر بالقياس الكمي الدقيق عن مدى هذا الاختلاف. ويتمسك المعارضون بأن القوانين الاجتماعية، إذا فرض وجودها، فإن من الممكن وصفها بالألفاظ، والتعبير عنها تعبيرا كيفيا فقط، ولا يمكن صياغتها أو التعبير عنها في صور كمية دقيقة.

غير أن هذه الصعوبة ليست ذات خطر، فالطابع الكيفي أو الكمي ليس أصيلا في الظواهر، وإنما توصف الطرق التي تستخدم في وصف الظواهر أو قياسها بأنها كمية أو كيفية. ومن الملاحظ أن كل العلوم التي وصلت إلى المرحلة الكمية قد مرت بالدور الكيفي، فقديما كان يقال أن الأشياء باردة أو ساخنة، ثقيلة أو خفيفة، إلى أن ظهر مقاييس دقيقة أمكن بمقتضاها تحديد هذه الصفات تحديدا كميا، والتعبير عنها بلغة الأرقام.

وبتقدم العلوم الاجتماعية سيصبح من المستطاع إخضاع جميع الظواهر الاجتماعية للقياس الكمي الدقيق. وقد أمكن في الوقت الحالي التغلب على كثير من الصعوبات المتصلة بالقياس، وذلك بتطبيق الأساليب الإحصائية واستخدام النماذج الرياضية في الدراسات الاجتماعية، وسيأتي اليوم الذي ستصبح فيه نتائج الدراسات الاجتماعية من أدق النتائج، وأقربها إلى الصواب.[2]

[1] - منذر الضامن ، المرجع السابق ، ص: 22.

[2] - عبد الباسط حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، ص: 104 ، 105.

محاضرة 6: مقارنة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة

والعلوم الطبيعية من جهة أخرى.

استطاعت العلوم الطبيعية، مثل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والفلك، أن تحقق تقدما كبيرا في بلوغ أهداف العلم. أما العلوم الاجتماعية، مثل التاريخ والاقتصاد والتربية، فقد تخلفت كثيرا. ويعتقد قليل من الناس أن العلوم الاجتماعية لن تصبح علمية أبدا. بينما يرى البعض الآخر أنها سوف تحقق تقدما تدريجيا، ولكن دون أن تدرك المستوى الرفيع الذي بلغته العلوم الطبيعية. ويعترف بعض الثقات بأن العلوم الاجتماعية لا زالت غير ناضجة، ولكنهم يدعون أن البحث في هذه المجالات سوف يصبح علميا كما هو الحال في العلوم الطبيعية. ومع ذلك فثمة عدد من العقبات يحول دون سرعة تحقق هذا الغرض. إذ يواجه المشتغلون بالعلوم الاجتماعية صعوبات كثيرة، وهم يكافحون في سبيل فهم العوامل الأساسية التي تحكم السلوك الإنساني، لكي يستطيعوا تفسير الظواهر الاجتماعية، والتنبؤ بها، وضبطها.

- **تعقد مادة الدراسة:**

تعالج العلوم الاجتماعية والطبيعية أجزاء من نفس مادة الدراسة، ومع ذلك توجد عوامل معينة تميز العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية. فالعلوم الطبيعية تهتم بالظواهر الفيزيائية. وعلى الرغم من وجود عناصر فيزيائية في الوقائع الاجتماعية، إلا أن تفسير الظواهر الاجتماعية يحتاج في أغلب الأحيان إلى شيء آخر غير قوانين الفيزياء أو علم وظائف الأعضاء. فإذا ضرب المعلم طفلا، قدمت لنا قوانين الكمياء والفيزياء والفيزيولوجيا تفسيرات جزئية لهذا الحدث، ولكنها تفشل في تبرير بعض الجوانب الهامة للفعل: لماذا عاقب المعلم الطفل؟ كيف كان شعور الطفل إزاء العقاب؟ وما رد فعل الوالدين أو إدارة المدرسة إزاء هذا الفعل؟[1]

إنّ مادة العلوم الطبيعية أبسط من تلك التي تعالجها العلوم الاجتماعية، لأنها تتعامل مع الظواهر على مستوى واحد، وهو المستوى الفيزيائي، ولا يتضمن الموقف على المستوى الفيزيائي، بصفة عامة، إلا عددا قليلا نسبيا من المتغيرات (أو مجموعة الشروط الضرورية لإتمام الحدث، وهذه يمكن قياسها بدقة تامة. أما العلوم الاجتماعية فتتعامل

[1] ديوبولد ب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1997 ، ص: 74 ، 75.

مع حالات أكثر تعقيدا، لأنها تهتم بالإنسان كفرد وكعضو في جماعة. لذلك قد تتضمن المشكلات الاجتماعية عددا كبيرا من المتغيرات التي تغمر الباحث باحتمالات متعددة ينبغي عليه أن يأخذها في الاعتبار.

فعندما يفحص عالم طبيعي أسباب حدوث انفجار كيميائي، يجد أمامه عددا قليلا نسبيا من العوامل الفيزيائية. ولكن عندما يفحص عالم اجتماعي أسباب جريمة قتل، فإنه يواجه عددا لا يحصى من العوامل، بعضها ليس فيزيائيا، فمما ينظر فيه مثلا: آلة القتل، وقوة واتجاه الطعنة، والأوعية الدموية الممزقة، وحالة سكر القاتل، وقوة الخصم، والعيوب البيولوجية الوراثية، والضغوط الاجتماعية للرفاق، وضعف حماية الشرطة، والمساء الحار الرطب، ونبذ الآباء والفقر، والعلاقات العنصرية المتوترة.

قد نستطيع أن نعلل الجريمة، أو أي ظاهرة اجتماعية أخرى، وفقا لعدد من التفسيرات الفيزيائية، ولكن الظواهر الاجتماعية يمكن ملاحظتها ليس على المستوى الفيزيائي وحده، بل أيضا من وجهة نظر اجتماعية أو نفسية أو بيولوجية أو أي مزيج منها: فيمكن تفسيرها – على سبيل المثال لا الحصر –وفقا لأنماط النمو، أو الزمن، أو النوع، أو المكان، أو التنظيم أو النشاط أو الدافعية، او الاتجاهات، وتخلق هذه الحالة صعوبات كثيرة للعالم الاجتماعي، إذ تؤرقه دائما مشكلة، أي وجهات النظر يتخذ، وأي المتغيرات ينتقي لكي يفسر الظواهر تفسيرا مقبولا.[1]

- **صعوبة ملاحظة مادة الدراسة:**

يواجه العالم الاجتماعي في ملاحظة الظواهر ملاحظة مباشرة صعوبات أكثر مما يجده العالم الطبيعي، فالعالم الاجتماعي لا يستطيع أن يرى أو يسمع أو يلمس أو يذوق الظواهر التي وجدت في الماضي، ولا يستطيع أن يكرر الأحداث الاجتماعية السابقة، لكي يلاحظها ملاحظة مباشرة. فلا يستطيع مثلا عالم الاقتصاد، أن يجمع معلومات عن أزمتي 1819 و1872 بملاحظة الأوضاع بعينيه، ولا يستطيع باحث في التربية يدرس نظام مدارس فترة الاستعمار في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، أن يقابل الأطفال والمدرسين مقابلة شخصية، ولا أن يرى عمليات التعليم في تلك الفترة المبكرة من التاريخ الأمريكي، ولا يستطيع عالم النفس أن يضع الشخصية في أنبوبة اختبار، لكي يعرف الأحداث الدقيقة التي مر بها المراهق في طفولته، وبينما يستطيع المشتغل بعلم الكيمياء أو الفيزياء أن يعيد الظروف المرغوبة مرات عديدة، وأن يلاحظ ما يجري مباشرة، لا يستطيع عالم الاجتماع أن يعيد

[1] ديوبولد ب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1997 ، ص: 75 ، 76.

الثورة الأمريكية، أو الصراع في سبيل إنشاء المدارس العامة في الولايات المتحدة، ذلك أن طبيعة الظاهرة الاجتماعية الماضية تستعصي على الملاحظة المباشرة المتكررة.[1]

يستطيع العالم الاجتماعي أن يلاحظ بعض الظواهر الاجتماعية الراهنة ملاحظة مباشرة، ولكنه لا يستطيع أن كشف عن البعض الأخر لكي يضعه موضع البحث، ففي معمل دراسة الطفولة، يمكن للباحث أن يلاحظ طفلا يصفع زميله، وأن يحصي عدد الكلمات التي يقرأها في الدقيقة، وأن يقيس قوة سمعه. لكن بعض العوامل الاجتماعية لا تخضع للفحص المباشر لأنها تتعلق بالشعور الداخلي، مثل رغبات الطفل ودوافعه وأحلامه. وهنا يجد الباحث نفسه بين أمرين إما أن يفسر "الحالة الداخلية" بنفسه، ولن يستطيع أن يفعل ذلك إلا في ضوء خبرات حياته هو، الأمر الذي يترك مجالا للخطأ، أو يقبل وصف الشخص موضع البحث ل"حالته الداخلية" وقد يكون هذا الوصف غير دقيق.

إن الوقائع الاجتماعية اكثر تباينا من الوقائع الفيزيائية، ففي معظم الحالات يعطي فحص سنتيمتر مكعب من حامض الكبريتيك نفس النتائج التي يعطيها سنتيمتر أخر من نفس الحامض، ولكن النتائج التي نحصل عليها من ملاحظة 30 تلميذا في مدرسة في مدينة ما، لا يشترط أن تتفق مع نتائج ملاحظة مجموعة مماثلة في العدد والسن من مدينة أخرى. كذلك قد يختلف طفل في العاشرة من عمره اختلافا كبيرا عن أقرانه في السن من حيث الطول، والوزن، وعدد الكلمات التي يعرفها، ومشاركته في اللعب، وتحصيله في مادة الحساب. صحيح أن المنهج الاجتماعي يستطيع في بعض الحالات أن يعامل كل الأفراد معاملة واحدة مثل ما يحدث في جداول المواليد، ولكن نظرا لاتساع شقة التباين بين الناس، يجد العالم الاجتماعي غالبا خطورة في أن ينسب إلى نوع كامل ما يصدق على عينات منتقاة.[2]

- **عدم تكرار مادة الدراسة:**

الظواهر الاجتماعية أقل قابلية للتكرار من الظواهر الطبيعية، فكثير من الظواهر في العلوم الطبيعية على درجة كبيرة من الوحدة والتواتر، لذلك يسهل تجريدها وصياغتها في صورة تعميمات وقوانين كمية دقيقة. أما المشكلات الاجتماعية فتعالج أحداثا تاريخية محددة وتتعرض لأشياء متفردة، ولأحداث تجري ولكنها لا تعود ثانية بنفس الشكل أبدا، ومع أننا نستطيع أن نصدر بعض التعميمات عن الحياة الاجتماعية والسلوك الإنساني، مثل

[1] ديوبولد ب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1997 ، ص: 76 ، 77.
[2] - نفسه ، ص: 77.

التعميمات التي يمكن صياغتها عن السمات المشتركة للحروب والغارات والثورات، أو البالغين والمراهقين والأطفال، إلا أن الظاهرة الاجتماعية لها شخصيتها المتفردة وغير المتكررة، التي ينبغي أن تفهم متكاملة إذا أردنا أن نفهمها على الاطلاق. لذلك لا يمكن أن نسرف في تجريد العوامل المشتركة في عدد من الأحداث الاجتماعية لكي نصوغ تعميما، دون أن نقع في مشكلة تزييف المادة. إنّ صياغة القوانين الاجتماعية وتحقيقها أكثر صعوبة، لأن الظواهر الاجتماعية أقل وحدة وتكرارا من الظواهر الطبيعية.[1]

– علاقة العلماء بمادة الدراسة:

إنّ الظواهر الطبيعية، كالعناصر الكيميائية مثلا، ليس لها عواطف أو شعور ذاتي، ولا يجد العالم الطبيعي حاجة لأن يراعي أغراض الكواكب والمحيطات ودوافعها. إنّ المادة التي يعالجها لا تتأثر برغبة الإنسان أو إرادته، أما العلوم الاجتماعية، فإنّ ظاهراتها أشد حساسية، لأنها تهتم بالإنسان كعضو في جماعة، والإنسان مخلوق غرضي، يعمل على الوصول إلى أهداف معينة، ويملك القدرة عل الاختيار، مما يساعده على أن يعدل من سلوكه، لذلك تتأثر مادة العلوم الاجتماعية كثيرا بإرادة الإنسان وقراراته، وهي دائمة التغير نتيجة للأعمال التي يقوم بها الناس.

يبحث العالم الطبيعي في عمليات الطبيعة، ويحاول أن يصل إلى القوانين العامة التي تحكمها، وهو لا يتوقع أن يغير الطبيعة، ولا أن يرضى عن عملياتها أو يعترض عليها، وإنما يأمل فقط في أن يساعده علمه بالظواهر الفيزيائية على الإفادة من عمليات الطبيعة. وعندما يضع العالم الطبيعي فرضا يفسر ظاهرة فيزيائية، يعرف أن تعميمه لن يجعل الظاهرة تغير طبيعتها. فإذا صاغ فلكي تعميما يفسر مدار الكواكب مثلا، لا ينتظر أن تتأثر الكواكب بأي شكل، بل ستظل الأجرام السماوية كما هي دون أن تتغير نتيجة لما أعلنه. ولن تعقد الكواكب مؤتمرا سماويا للدعوة إلى اتخاذ مسارات جديدة.

هذا الوضع يختلف عما نجده في العلوم الاجتماعية، لأنها تلتحم بالأوضاع الاجتماعية، لذلك قد تؤثر التعميمات التي تفسر الظواهر الاجتماعية في الأحداث والأوضاع الاجتماعية. فإذا قبل الناس تفسيرا لظاهرة اجتماعية، قد يقررون تعديل الأنماط الاجتماعية السائدة في ضوء هذه المعرفة، ومن ثم يخلقون أوضاعا جديدة تجعل التعميمات السابقة باطلة وغير ذات موضوع. وبالتالي فإن التعميم الدقيق في الاقتصاد والتربية أكثر صعوبة منه في الفلك أو في الفيزياء. فإذا أعلن عالم اجتماعي أن 260 فردا سوف يموتون في حوادث تصادم السيارات في أحد الأعياد القومية، قد لا يصدق تنبؤه، إذ قد ينزعج الجمهور لهذا الإعلان، وينظم حملات قومية للوقاية من الحوادث

[1] ديوبولد ب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1997 ، ص: 77 ، 78.

تقلل فعلا من نسبة الوفيات المتوقعة. إن نتائج العلوم الطبيعية لا تفقد قوتها إلا إذا استبدلت ببصر أعمق في الظواهر، لكن نتائج العلوم الاجتماعية يمكن أن تفقد قيمتها لأن معرفة الناس بها قد تجعلهم يغيرون احوالهم الاجتماعية.

يستطيع الباحثون أن يحققوا قدرا من الاستقلال والموضوعية إزاء الظواهر الطبيعية أكثر من استقلالهم إزاء الظواهر الاجتماعية، فالباحث الاجتماعي ليس ملاحظا مجردا يقف خارج المجتمع ليرقب عملياته، وإنما هو جزء لا يتجزأ عن المادة التي يلاحظها. قد يستطيع الإنسان أن يلاحظ الظواهر الطبيعية مثل تركيب البروتوبلازم ملاحظة مجردة، ولكن اهتماماته وقيمه وتفضيلاته وأغراضه تؤثر في أحكامه وهو يلاحظ الظواهر الاجتماعية. لذلك تكون الموضوعية تجاه التفاعلات الإنسانية في حوادث التفرقة العنصرية في المدارس مثلا، أصعب منها تجاه التفاعلات الكيميائية في أنابيب الاختبار، وتكون إزاء الضغط الاجتماعي في الأحياء الفقيرة، أصعب منها إزاء الضغط المادي في الفيزياء، وإزاء النظام الشيوعي في المجتمع، أصعب منها إزاء النظام الشمسي في الطبيعة، إن الارتباطات العاطفية بنظم وقيم معينة تدفع العالم الاجتماعي لكي يوافق أو لا يوافق على عمليات اجتماعية معينة، لذلك يصعب أن نلغي أثر التحيز الشخصي في ملاحظة ظواهر العلوم الاجتماعية.

يهتم العالم الطبيعي بمشكلات الواقع، ويقصر بحوثه على الأوضاع الموجودة في الطبيعة، ويهتم العالم الاجتماعي أيضا بمشكلات الواقع. فهو يدرس ويصف خصائص وأسباب البطالة، أو جنوح الأحداث، أو ضعف القراءة، وما إلى ذلك من المشكلات، لكي يفحص الأحوال السائدة في المجتمع، ولكن العالم الاجتماعي لا يهتم بالمجتمع كما هو فقط، بل يهتم أيضا بتطوير النظريات التي ترشد إلى ما ينبغي أن يكون، إلى ما هو مرغوب اجتماعيا. وعلى الرغم من أن بعض العلماء الاجتماعيين يقولون أنهم لا يهتمون بالغايات الاجتماعية، فقد يقبلون، عن وعي، النظام القائم على أنّه النّظام المثالي، وبينما يتجاهل بعض الباحثين الغايات الاجتماعية، فقد تدفع نتائج دراساتهم آخرين إلى التفكير في نظام اجتماعي مثالي. إنّ مادة العلوم الاجتماعية تواجه أنماطا من المشكلات لا تواجهها العلوم الطبيعية، لأنّها تتعلق بالإنسان وهو مخلوق له أغراضه وقيمه.

يجب إذن أن يتغلب العلماء الاجتماعيون على عقبات كثيرة، إذا كانوا يريدون تحقيق تقدم كبير في تفسير السلوك الإنساني، والتنبؤ به، وضبطه، ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق البحث الصابر المثابر. ولابد من أن يعالج العلماء الاجتماعيون المشكلات الإنسانية بقوى متجددة، نظرا للتقدم الهائل الذي حققه العلماء الطبيعيون في كشف اسرار الطبيعة في القرن الماضي. لقد خلق تطور الطاقة الذرية ووسائل النقل السريعة والميكنة مشكلات

اجتماعية عديدة معقدة يجب أن تحل إذا أردنا للمجتمع أن يعيش. إنّ الحاجة لماسة في عصرنا الحديث لبحوث نفسية وتربوية واجتماعية واقتصادية. ويجب أن ندرب أعدادا من الناس أكثر وأكثر لمواجهة هذه الحاجة.[1]

ويمكن أن نذكر كذلك الفوارق التالية بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية

العلوم الطبيعية	العلوم الاجتماعية
– يهدف علم الطبيعة إلى التفسير العِلِّي. – تفسر الحوادث تفسيرا كميا محكما، ويكون بواسطة الصيغ الرياضية. – علم الطبيعة يستخدم التعميم عن طريق الاستقراء. – قدرة علم الطبيعة على الوصول إلى قوانين الكلية وتفسير الحوادث الجزئية باعتبارها حالات خاصة لهذه القوانين.	– علم الاجتماع يهدف إلى إدراك الأغراض والمعاني. – يحاول فهم التطورات التاريخية بواسطة يغلب عليها الطابع الكيفي. – يستعين بالمشاركة الوجدانية عن طريق المخيلة من أجل التعميم. – بينما لابد لعلم الاجتماع من أن يقنع بادراك الحوادث الفذة إدراكا حدسيا، وأن يكتفي بفهم دورها في المواقف المعينة الناشئة في إطار معين من صراع المصالح أو الميول أو المصائر.

إنّ علم الاجتماع كعلم الطبيعة فرع من فروع المعرفة التي غايتها أن تجمع بين الجانب النظري والتجريبي وعندما نقول عن علم الاجتماع أنه نسق نظري فذلك يعني أن غايته تفسير الحوادث والتنبؤ بها، بواسطة النظريات أو القوانين الكلية (التي يحاول اكتشافها). وحين نصف علم الاجتماع بأنه تجريبي، فمعنى ذلك أن له سندا من التجربة، وأن الحوادث التي يفسرها ويتنبأ بها هي وقائع يمكن مشاهدتها، وأن المشاهدة هي الأساس التي نعتمد عليه في قبولنا أو رفضنا لأية نظرية من نظرياته. وعندما نتكلم عن النجاح الذي أحرزه علم الطبيعة فالمقصود بذلك نجاح تنبؤاته: ويمكن القول إنّ نجاح التنبؤات في هذا العلم قائم في تأييد التجربة لقوانينه. وحين نعارض بين النجاح النسبي في علم الاجتماع ونجاح العلوم الطبيعية فنحن نفترض أن نجاح علم الاجتماع ينبغي هو الآخر أن يقوم في أساسه

[1] ديوبولد ب فان دالين ، مناهج البحث في التربية وعلم النفس ، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1997 ، ص: 80

على تأييد التجربة لتنبؤاته. ويلزم عن ذلك أن بعض المناهج –كالتنبؤ بواسطة القوانين، واختبار القوانين بالتجربة – يجب أن يكون حظا مشتركا بين علم الاجتماع وعلم الطبيعة.[1]

[1]- كارل بوبر ، عقم المذهب التاريخي دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، تر: عبد الحميد صبره ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1959 ، ص: 49 ، 50.

المحاضرة 7: المناهج الكمية والمناهج الكيفية

من المتفق عليه على مستوى الإجراءات، أن نميز في بحوث العلوم الانسانية بين تلك التي تهدف إلى قياس الظواهر عن تلك التي تسمح بأخذ معطيات كيفية لا يمكن قياسها أو عدها، لهذا تتطلب المناهج الكيفية والكمية مجموعة الإجراءات المختلفة.

إن المناهج الكمية تهدف في الأساس إلى قياس الظاهرة موضوع الدراسة، وقد تكون هذه القياسات من الطراز الترتيبي (ordinales)، مثل: أكثر من أو أقل من، أو عددية وذلك باستعمال الحساب. إن أغلبية البحوث في العلوم الانسانية تستعمل القياس؛ وكذلك الأمر حينما يتم استعمال المؤشرات، النسب، المتوسطات أو الأدوات التي يوفرها الإحصاء بصفة عامة.

إننا نستعين بالمناهج الكمية أثناء محاولة معرفتنا مثلا تطور أسعار الاستهلاك منذ عشر سنوات، نسبة التصويت في الانتخابات القادمة، الارتباط بين درجة التحضر ونسبة المواليد.[1]

أما المناهج الكيفية فتهدف في الأساس إلى فهم وتحديد الظاهرة موضوع الدراسة، وعليه ينصب الاهتمام هنا أكثر، على حصر معنى الأقوال التي تم جمعها أو السلوكات التي تمت ملاحظتها، لهذا يركز الباحث أكثر على دراسة الحالة أو دراسة عدد قليل من الأفراد، فعندما يحاول الباحث معرفة أطوار تعلم الطفل، أو الأحداث التي طبعت عشرية زمنية، .. فإنه يستعين في ذلك بالمناهج الكيفية.

لقد ظلت المناهج الكمية ومنذ زمن طويل معارضة للمناهج الكيفية، تعتمد المناهج الكمية على صيغ رياضية للواقع، ونظرا إلى استعمالاتها العادية والمتكررة من طرف علوم الطبيعة، فقد اعتبرت منذ البداية أنها أكثر صرامة وعلمية من المناهج الكيفية، حيث أدى هذا بالعلوم الإنسانية إلى الاعتقاد ولمدة طويلة أن نموها ومصداقيتها مرهونان باستعمال أكثر للتكميم في بحوثها.

لقد استعانت بعض تخصصات فروع العلوم الانسانية مثل الاقتصاد، الجغرافيا، علم الاجتماع، علم النفس وعلوم الإدارة بالرياضيات في دراستها للظواهر، لأن طبيعة موادها ومواضيعها تتقبل ذلك بكل سهولة، مع ذلك فإنه لا يمكن إخضاع الظواهر الإنسانية دائما للتكميم، لذا فهي ملزمة أيضا باستخدام المناهج الكيفية التي تستعين أكثر بالأحكام، وبدقة ومرونة الملاحظة أو بفهم التجارب التي يعيشها الأفراد.

[1] موريس أنجرس ، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية ، ص: 100.

إضافة إلى ما تقدم، فإن الظواهر الإنسانية ومهما كانت دقة القياسات الكمية المستعملة في قياسها، ستظل محتفظة ببعدها الكيفي. فعندما يتحدث المرء، مثلا، عن درجة الرضى عن العمل، أو درجة النزعة المحافظة لدى مجموعة بشرية ما، أو الازدهار في دولة ما، وهي كلها ظواهر لها قياسات حسابية، فإن المصطلحات المستعملة هي من طبيعة كيفية وتعود إلى حقائق إنسانية لا تستجيب أبدا للقياسات الكمية التي تمت تهيئتها من أجل ذلك. فالرضى والنزعة المحافظة والازدهار مصطلحات تشير أصلا إلى تقدير الواقع، ويبقى الحساب ليس أكثر من مجرد تكميم.

إن الأهداف المتبعة والمواد المتوفرة، هي التي تحدد إما درجة التكميم، أو المسعى الكيفي الذي ينبغي اعتماده، لأننا عندما نريد قياس نوعية ظاهرة ما، فإن الأعداد في حد ذاتها لا تضيف شيئا مهما كانت دقيقة، وعكس ذلك، فإن وصفا نوعيا مفصلا سيكون عديم الفائدة إذا كان المعطى الرقمي أكثر وضوحا، يبقى الأهم، في أخذ كل الوسائل الضرورية لتعميق موضوع الدراسة وتحليل كل جوانبه. إن هاتين العمليتين المنهجيتين الكبيرتين هما الآن مكسبين تشترك فيهما العلوم الإنسانية[1].

وتختلف البحوث في مناهجها وتصميمها، وتُستخدم مصطلحات مثل البحث النوعي والبحث الكمي، ولكل نمط توجهات معينة وطريقة في دراسة الظاهرة وتفسيرها، ولعل أبرز الفروق بينهما هي في طريقة جمع المعلومات والبيانات. فالبحوث الكمية تركز على الأعداد والأرقام والجداول والبيانات الرقمية. في حين تهتم البحوث النوعية بالمعلومات والمفردات والكلمات والجمل التوضيحية.

والبحث النوعي أشبه باستقصاء أو دراسة لحالة معينة أو ظاهرة يقوم من خلالها الباحث بجمع معلوماته وبياناته من خلال مشاركته الحقيقية في موقع الظاهرة؛ فالباحث النوعي يريد دراسة سلوك الطلبة في مدرسة ما، يقوم بزيارة المدرسة ودراسة أوضاعها، وإجراء مقابلات مع عدد من العاملين فيها؛ إنه يحاول أن يقوم بوصف متعمق، وغني لهذه الظاهرة في نفس الموقع الذي تحدث فيه، ليقدم في نهاية بحثه تحليلا للمعلومات التي يحصل عليها، ويصوغ نتائج دراسته على ضوئها.

بينما يرى الباحث الكمي أن الحقيقة مستقلة تماما عن الآخرين، ويمكن دراستها وحدها بغض النظر عن أية علاقات. ولذلك يقدم الباحث النوعي نتائجه من خلال العلاقات بين الظاهرة والناس ومشاعرهم.

[1] - موريس أنجرس ، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية تدريبات عملية ، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2006 ، ص: 100 ، 101.

فالحقيقة عنده بناء اجتماعي منسوج مع ظواهر وعلاقات أخرى؛ بينما يحاول الباحث الكمي قياس هذه الظاهرة بشكل منعزل ومستقل.

يحاول الباحث الكمي قياس الظاهرة، وإيجاد العلاقات الرقمية بين الأسباب والنتائج والتعبير عنها رقميا. بينما يهتم البحث النوعي بفهم الظاهرة من خلال علاقتها بمشاعر وإدراكات ذوي العلاقة.

يهدف **البحث الكمي** إلى تعميم نتائج دراسته لتشمل حالات أخرى، فهو يعبّر عن نتائجه بشكل رقمي يقوده إلى إصدار تعميمات يطبقها على حالات أخرى، ولذلك يختار عينة ممثلة ليتمكن من تعميم النتائج.

أما **البحث النوعي** فيحاول فهم الظاهرة في الظروف التي تمت فيها، ولا يهدف إلى تعميم النتائج على حالات أخرى، ولذلك يختار عينة عرضية، أو مقصودة وغالبا ما تكون قليلة العدد وقد لا تتجاوز 40 شخصا ممن لهم علاقة بالظاهرة.

يختلف منهج البحث في كلا الاتجاهين؛ فالباحث الكمي يضع خطته وأسئلته وتصميمه بشكل مسبق، ويلتزم بكل ما خطط له، أما الباحث النوعي فيملك مرونة واسعة في تغيير خطته الأولية والقابلة للتغيير المستمر.

الباحث الكمي يلتزم الموضوعية بشكل دقيق، لا يتدخل، ولا يتحيز ولا يفسر الظاهرة من وجهة نظره. بينما الباحث النوعي يكون طرفا في البحث، وطرفا في الموقع، ولذلك تنتقل ذاتيته في الأحداث لأنه طرف مشارك لا محايد كالباحث الكمي، إنه يستخدم ذاتيته لكن بشكل منظم.

يحتاج الباحث الكمي التزاما بالموضوعية، إلى استخدام أدوات تتميز بالصدق والثبات، ويُعد مقابلاته واستبيانه بشكل مسبق ودقيق، ويوجه نفس الأسئلة إلى جميع أفراد العيّنة، وفي نفس الظروف تقريبا، فهو محتاج إلى شخص مدرب ليجري المقابلات، ويطبق أدوات البحث. بينما تتم المقابلات في البحث النوعي بمرونة شديدة، فقد يغيّر من الأسئلة شخص آخر، وقد يُشرك مفحوصين آخرين، ويؤمن الباحث النوعي بأن كل ظاهرة متفردة بذاتها لها أسبابها، وعواملها، وبيئتها التي تتم فيها، ولذلك لا يهدف إلى تعميم نتائجه؛ فالباحث النوعي لا يستطيع فهم الظاهرة إلا في الإطار الذي تحدث فيه، ومن خلال تشابك العوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة عليه.

المحاضرة 8: الموضوعية والذاتية

1- الموضوعية:

لقد كثُر الحديث عن الموضوعية، فإذا كانت تعني بالنسبة إلى بعض الأشخاص الحياد، فبالنسبة إلى آخرين فإنها تعنى الابتعاد عن المصالح الذاتية. لكن إذا كانت الموضوعية عادة، مرادفة لعدم التحيز إلى رأي أو إلى أي موقف ما، فهي بصفة أخص، ميزة كل ما يصف شيء أو ظاهرة بصدق، أي كل ما يمنح تمثيلا مطابقا للواقع. فالموضوعية بمثابة مثل أعلى يستحيل بلوغه. وبالرغم من أننا نطمح إلى وصف صادق لما نشاهده أو نسمعه، إلا أن ما نراه أو نسمعه يتم وفق كياننا المتضمن للشعور والإحساس والأحكام والتجارب والمعارف، بما في ذلك العقل.[1]

ويقصد بالموضوعية Objectivity معالجة الظواهر باعتبارها أشياء لها وجود خارجي مستقل عن وجود الإنسان. والشيء الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها. ويوضح الفيلسوف الإنجليزي "برتراند راسل" هذه النقطة بقوله:" لكي نوضح الفرق بين الموضوعية والذاتية نقول: افرض أن عددا كبيرا من المتفرجين في مسرح كانوا يشاهدون في آن واحد ما يجري على خشبة المسرح، كذلك كان في المسرح عدة آلات تصوير تلتقط في آن واحد صور ما يجري على خشبة المسرح، فعندئذ تكون الصور التي تلتقطها آلات التصوير، وكذلك الصور التي يتلقاها المتفرجون، متفقة في وجوه مختلفة في وجوه، وسأصف بكلمة "موضوعي" ذلك الجانب الذي يشترك فيه المتفرجون جميعا، أو آلات التصوير جميعا. كما أني سأطلق كلمة "ذاتي" على الجوانب التي ينفرد بها هذا المتفرج دون غيره، أو آلة من آلات التصوير دون غيرها، فسيبدو الممثل على خشبة المسرح أطول عند المتفرج القريب منه مما هو عند المتفرج البعيد. وعلى هذا فالذاتية أمر لا يقتصر على مجرد الأهواء الشخصية، بل هو أحد جوانب الطبيعة نفسها، ومعناها ان المؤثر الواحد لا يبدو للأعين المختلفة في أوضاعها على صورة واحدة، أما إذا كان في هذا المؤثر جوانب لا تتغير صورتها عند مختلف الأعين مهما اختلفت أوضاعها، كانت تلك الجوانب المشتركة "موضوعية".[2]

والموضوعية في العلوم الطبيعية تختلف عنها في العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدب والفن. فالموضوعية في العلم غير الموضوعية في الفلسفة، فإذا كان العلم والفلسفة يتفقان في أنهما تعبير عن الواقع الكوني وظواهره الموضوعية، فإن الموضوعية التي يقصدها العلم هي موضوعية الوقائع التي تظهر في المعمل الكيميائي بعد التحليل

[1] - موريس أنجرس ، المرجع السابق ، ص: 39.

[2] - محمود محمد الحويري ، منهج البحث في التاريخ ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، 2001 ، ص: 199 ، 200.

والتركيب. وعلى العكس من ذلك، فإن موضوعية الظواهر التي تقصدها الفلسفة إنما تتعلق بالكون ككل، أي بذلك الخليط الهائل من الأشياء الذي نطلق عليه اسم العالم والذي يطلق عليه الفلاسفة أسم المكان الزماني l'Espace Temps. [1]

وفي الإلتزام بالموضوعية يختلف العلم عن الفن في كل صوره، لأن الخبرة الذاتية أساس الفنون والآداب، فالفنان ينظر إلى الشيء الذي يصوره إن كان مصورا، أو ينظمه إذا كان شاعرا من خلال عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته وأخيلته، أما العالم فإن منهجه العلمي يقتضيه أن ينظر إلى موضوع بحثه كما هو في الواقع، إن الفنون ابتداع ذهني تلقائي، وأما العلم فيقوم على وصف الأشياء وتقرير حالتها كما هي في الواقع تحتفظ بذاتها على مر الزمان، ومن هنا قيل في التفرقة بين شخصية الفنان وشخصية العالم: الفن أنا والعلم نحن!

فيما يقول الطبيب الفرنسي كلود برنارد (ت 1878) الذي استقل علم الأحياء على يده، فإذا عرض لدراسة موضوع واحد مجموعة من العلماء، انتهوا في آخر المطاف إلى نتائج واحدة، وإن اختلف بعضهم مع بعض حسموا الخلاف بالالتجاء على الواقع، ومحك الصواب عندهم هو "التجربة" التي يمكن تكرار إجرائها – للتثبت من صحة النتائج– بطريقة موضوعية خالصة، أما في حالة الفن فإن المنظر الواحد يصوره الفنانون أو الشعراء في صور شتى أو قصائد متباينة، وبمقدار ما يكون بينها من تفاوت وتباين، يمكن أن تكون عبقرية كل من أصحابها.[2]

ومسألة الموضوعية أمر نسبي تماما في جميع أدوات البحث الاجتماعية والنفسية، ولا يمكن إعدادها واستخدامها ونتائجها بمنجاة من التحيز والمعادلة الشخصية في أكثر من موضع. فلو أخذنا استبيانا الاتجاهات الاجتماعية والنفسية لوجدنا أن التحيز يظهر في وضع الاستبيان نفسه، إذ يقوم الاستبيان على وضع مجموعة من الأسئلة تعتبر مشيرة ودالة على الاتجاه المراد نفسه. وفوق هذا يدخل التحيز في أنواع الاستجابات نفسها، فمن قبيل التصور النظري أيضا أن الشخص الذي يجيب على الاستبيان أو المقابلة إنما يقدم للباحث "عينة" من إجاباته. فقد تكون لديه جملة استجابات لموقف معين أو نحو موضوع ما، وما يجيب الباحث به إن هو إلا عينة تناسب الموقف الذي يوضع فيه، وقد تتغير هذه الاستجابة إذا تغيرت بعض عناصر الموقف. كذلك نلاحظ أن هناك مجالا واسعا للذاتية في صياغة الأسئلة، سواء كان مصدر الذاتية هو واضع الأسئلة أو كان مصدرها الوسط أو الجو الحضاري الذي ينتمي إليه.[3]

[1] - الحويري ، المرجع السابق ، ص: 200 ، 201.
[2] - نفسه ، ص: 201.
[3] - نفسه ، ص: 202

إن أهم الأمور الذي دعت إلى تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية الرغبة الملحة في الوصول إلى الحقائق "الموضوعية" بعيدة عن التصورات الذاتية أو التلوين الشخصي، وهذا هو أكبر ميادين انتصار العلوم الطبيعية. بيد أن في العلوم الاجتماعية والانسانية نجد صعوبة بالغة في تحقيق هذه الغاية، نتيجة لتأثير عملية البحث بالعامل الذاتي. ففي طبيعة الموقف الاجتماعي أو مظاهر السلوك الإنساني انغماس الباحث فيما يبحث فيه، فهو من ناحية ملاحظ بعيد عن الموقف، وهو في نفس الوقت جزء من الموقف الملاحظ، ومما يزيد في تعقيد مسألة الموضوعية في العلوم الاجتماعية أن ظواهر المجتمع ليست بساطا ممتدا أمام أعين الباحثين دائما، بل إن جزءا آخر غير واضح، وجزءا منها يتضح في بعض الأوقات، وربما كانت هناك أجزاء غامضة كثيرة غير معلومة. [1]

ويشير البعض إلى أن الموضوعية المطلقة أمر عسير التحقيق في البحوث الاجتماعية، ولكنهم في الحقيقة قد بالغوا في تقدير أثر العوامل الذاتية في تلك الدراسات. فقد أمكن الوصول فعلا إلى عدد كبير من القوانين والنظريات العلمية في الميدان الاجتماعي، ولا يمكن القول بأنها كانت قائمة على تحيزات شخصية، أو أن أصحابها كانوا يغلبون الجانب الذاتي على الجانب الموضوعي في دراساتهم. وتتوقف الموضوعية في البحث الاجتماعي على ضمير الباحث العلمي، ورغبته في إظهار الحقائق كما هي دون تحيز لرأي، أو تعصب لمذهب معين. [2]

2- **الذاتية** :حتى في العلم الذي يعتبر ميدانا للموضوعية، يتدخل منذ البداية عنصر الذاتية، إنها المصلحة. إن البحث العلمي يتطلب من الباحث استخدام كل طاقته، الشيء الذي يجعل من الصعب عليه إلغاء مصلحته من هذا البحث. بنفس الكيفية، فإن المصلحة تمده بالدافع للوصول بمشروع البحث إلى هدفه. بمعنى آخر فإنه لا يستطيع أن يكون حياديا أمام الواقع، واتخاذه للحيطة والحذر من كل أعراض الذاتية هو في حد ذاته خطوة أولى نحو الموضوعية. في هذا المعنى فإن الباحث يحاول أن يتجاوز أبعد ما يمكن أفكاره المسبقة، واستعمال كل الوسائل الموجودة تحت تصرفه، حتى يتجنب التلاعب أو التدليس الذي يمكن أن تكون النتائج التي يطمح إلى بلوغها عرضة لهما.

وهنا يمكن التساؤل، هل يعني هذا أن الكائن الموضوعي هو ذلك الذي يتنكر لذاتيته أو ذلك الذي يمكنه كتمانها؟ فالتنكر للذاتية سيكون بمثابة نكران الذات في حد ذاتها أو نكران كل ما يحمل على حب القيام بالبحث مثلا، ذلك هو التناقض. لهذا نقول عن التفكير العلمي إنه يتجه نحو الموضوعية إنه انشغال كل اللحظات، إنها تمثل جزءا من الانضباط الشخصي الذي نحن في غنى عنه عند قيام أي شخص كان بالعمل

[1] ، الحويري ، المرجع السابق ، ص: 202 ، 203.

[2] - نفسه ، ص: 203. عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1982 ، ط 8 ، ص: 103 ، 104.

العلمي. هكذا فمن المقاربات الجميلة أن يروض الباحث ذاتيته ويجعل طاقته ومصلحته في خدمة مشروع البحث الجاري إعداده.[1]

[1] -موريس أنجرس ، المرجع السابق ، ص: 40.

السداسي الثاني.

محتوى المادة:

المدارس المنهجية الكبرى:

1-المدرسة الإسلامية.

2-المدرسة الماركسية.

3-المدرسة الوضعية.

4-المدرسة الوظيفية.

5-المدرسة البنيوية.

6-مدرسة الحوليات أو التاريخ الجديد.

7-المدرسة الأنجلوسكسونية

المطلوب التعرض لكل مدرسة من هذه المدارس من خلال:

1-التعريف بها.

2-تاريخها.

3-روادها.

4-تصورها المنهجي:

أ- القواعد المنهجية الاسترشادية.

ب- النموذج التصوري.

ت- مراحل التحليل.

ث- نسق التفسير.

المحاضرة 1: المدرسة الإسلامية

تمهيد:

التاريخ من أهم فروع المعرفة الإنسانية، بل هو المعرفة والعلم الذي يظهر الإنسانية على حقيقتها، وقد اهتم به المسلمون اهتماما كبيرا ظهر من خلال مؤلفاتهم فيه، تعددت طرق الكتابة وتنوعت، مما طبع الكتابة التاريخية عندهم بطابع خاص تميز عن باقي الأمم. لذلك نحن بحاجة لأن نفهم سبب نشأة الكتابة التاريخية عند العرب، لنرى دوافع كتابة التاريخ، واتجاهات المؤرخين، وآرائهم التاريخية، وأسلوبهم في تمحيص الروايات وفي الكتابة، وفي نظرتهم إلى أهمية التاريخ ودوره في الحياة الثقافية والحياة العامة.

معنى كلمة التاريخ عند العرب:

في اللغة: التأريخ والتوريخ من الفعل أرّخ وهو تعريف الوقت. أرخ الكتاب ليوم كذا أي وقته.

وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ، فذهب بعضهم به إلى العربية الخالصة، فقال إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرْخُ، وهو ولد البقرة الصغير، لآنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد، فهو حدث جديد. أما آخرون فيردونه إلى الفارسية، وأنه مأخوذ من الكلمة الفارسية "ماه روز" التي تعني "يوم الشهر" فعربوها وقالوا "مؤرخ" وجعلوا المصدر منها التاريخ. وهو اشتقاق بعيد لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين.[1]

وقيل إن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتأريخ المسلمين أُرّخ من زمن هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب في خلافة عمر رضي الله عنه، فصار تاريخا إلى اليوم[2]

ويرى الدكتور حسين نصار أن الكلمة عربية الأصل، ويرجح ذلك، ويخالف قول أنها مأخوذة من "الأرخ"، لأنها كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية، وهي قريبة من كلمة "يا ريح" التي معناها القمر والشهر أيضا بالعبرية.[3]

ومن المعروف أن الساميين كانوا يحددون شهورهم بالقمر لا بالشمس، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالي دون الأيام، كما هو الحال في التقويم الهجري اليوم. وعلى هذا يكون معنى كلمة "التاريخ" في مبدأ أمرها "تحديد الشهر" ثم اتسع فصار التوقيت العام، أي تحديد عهد أي حادث من الحوادث.[4]

---

[1] - حسين نصار ، نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، منشورات إقرأ ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1400ه / 1980 ، ص: 5.

[2] - ابن منظور ، لسان العرب ، مادة "أرخ" ، دار المعارف ، القاهرة ، ص: 58.

[3] - حسين نصار ، نفسه ، ص: 6.

[4] - نفسه ، ص: 7.

نشأة التاريخ عند العرب:

- يكون علم التاريخ عند العرب جزءا من التطور الثقافي العام. وصلته بعلم الحديث وبالأدب بصورة خاصة وثيقة، وتستحق اهتماما خاصا، ثم إنّ ظهور الإسلام، وتكوين "الإمبراطورية" والتصادم بين الآراء والتيارات الحضارية، وتطور الأمة وخبراتها، كل هذه حيوية لفهم التطورات الأولى للكتابة التاريخية.

ومع أن علم التاريخ ظهر عند العرب في صدر الإسلام، إلا أن الاستمرار الثقافي يوجب الالتفات إلى تراث ما قبل الإسلام.

- بظهور الإسلام، بدأت نظرات جديدة، فقد جاء القرآن بنظرة جدية إلى الماضي، وأشار إلى أن ذكريات العرب الماضية محدودة، وعاد إلى بدء الخليقة. وأكد على أمثلة التاريخ الغابر وعظاته، وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة، للتأكيد على العبر الدينية والخلقية التي تنطوي عليها.[1]

وجاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ، تتمثل في توالي النبوات، وهي في الأساس رسالة واحدة بشر بها أنبياء عديدون، وكان الرسول الأعظم خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان لهذه النظرة أثرها في الإلتفات إلى تاريخ الأنبياء وإلى الإسرائيليات. إلا أن هذه النظرة العالمية اقتصرت على المدد التي سبقت ظهور الإسلام، أما بعد ذلك فإن الاهتمام انصب على تاريخ الإسلام. فالمسلمون خلفوا الأمم السابقة التي ظهرت فيها نبوات، وأعمالهم وشؤونهم تستحق عناية خاصة. وقد أكد هذه النظرة الحديث المشهور " لا تجتمع أمتي على ضلال" وهو حديث هام في تقرير الإجماع.

ثم إن القرآن نص على أن أقوال الرسول موصى بها، وأن سيرته مثل للمسلمين يقتدون به، وهنا نجد دافعا مباشرا لدراسة أقوال الرسول وأفعاله.

دافع آخر للاهتمام بالتاريخ عند المسلمين، هو رسالة الإسلام وعالميتها، وجب تبليغها للأخرين، فكانت الفتوحات سببا في الاختلاط بالأمم الأخرى والتعرف عليها وعلى تاريخها.

وضع التقويم الهجري من طرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان عنصرا أساسيا في نشأة الفكرة التاريخية. ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقري للدراسات التاريخية، كما قام عمر بتأسيس الديوان، أو سجل المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة، وكان حافزا إضافيا للاهتمام بدراسة الأنساب.

بعد هذا العرض لأهم الدوافع التي كانت وراء اهتمام العرب بالدراسات التاريخية، يمكننا ملاحظة أن بدايات علم التاريخ عند العرب سار في اتجاهين أساسيين، الإتجاه الإسلامي، الذي ظهر عند أهل الحديث، وكان مركزه في المدينة مدينة رسول الله، والاتجاه القبلي أو اتجاه "الأيام" وكان مركزه البصرة والكوفة بالعراق. وصار لكل اتجاه مدرسة تاريخية، وحصل تأثير متبادل بين المدرستين التاريخيتين، ثم بان تفوق المدرسة الإسلامية حين غلب اتجاه أهل الحديث.

[1] - الدوري عبد العزيز ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، 1420هـ - 2000م ، ص: 21.

اهتمام المسلمين بدراسة حياة الرسول ومغازيه في المدينة، ضمن دراسة الحديث. وكان رواد دراسة "المغازي" محدثين. وكان منهجهم في الدراسة يعتمد على الإسناد (سلسلة الرواة) دلالة على أهميته وبيان لقيمة المغازي، مما يعني ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة. وهذا الاتجاه أنتج نظرة نقادة إلى الرواة أو مصادر المعلومات في وقت مبكر، وأدخل عنصر التحري والبحث في جمع الروايات، وكون أساسا متينا للدراسة التاريخية.[1]

رواد المدرسة التاريخية الإسلامية:

مدرسة المدينة:

كانت أولى الدراسات التاريخية تهتم بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد سميت باسم "المغازي" والتي تعني غزوات الرسول وحروبه، ولكنها تناولت عصر الرسالة ككل، وقد قام بها بعض أبناء الصحابة أبرزهم:

- أبان بن عثمان بن عفان (ت 95- 105هـ/ 713- 723م) وهو محدث له ميل إلى دراسة المغازي. ومع أن أحد تلامذته كتب مغازيه، إلا أنها توصف بأنها من الحديث. وهو يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازي.[2]
- عروة بن الزبير: ت 94هـ/ 712م فقيه ومحدث، كان مؤسس دراسة المغازي، حيث كان أول من ألف كتابا في "المغازي" مثلما فعل أبان بن عثمان.

  وقد وردت مقتطفات من مغازيه عند بعض المؤرخين، كالطبري، وابن إسحاق، والواقدي وابن سيد الناس، وابن كثير، وهذه المقتطفات هي أقدم ما وصل إلينا من تاريخ المغازي.[3]
- شرحبيل بن سعد: ت 123هـ/ 740م وينتمي إلى نفس المدرسة في دراسة المغازي، وأضفى عليها الطابع الاجتماعي، حين قدم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى.[4]

وفي الجيل الثاني، قام ثلاثة من العلماء بتنمية دراسة "المغازي" وتوسيعها، وهم عبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت 130هـ- 135هـ/ 747- 752م)، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت 120هـ/ 737م)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124هـ/ 741م)، وكتاباتهم حددت إطار المغازي وهيأت المادة العلمية الخاصة التي اعتمد عليها ابن إسحاق والواقدي فيما بعد.

والزهري هو المؤرخ الأول من بين الثلاثة المذكورين. إذ أنه لم يقتصر على رواية "مغازي" عروة بن الزبير، بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها، وكتب ما كان يسمع ليعين ذاكرته، وقد محص تلك الروايات ووضعها في إطار متين واضح. ووضع المعالم الأولى لكتابة "السيرة" مراعيا التسلسل التاريخي لأحداث السيرة، وأعطى تواريخ الحوادث المهمة. متأثرا بمنهج

[1] - الدوري ، المرجع السابق ، ص: 23.
[2] - نفسه ، ص: 24.
[3] - الدوري ، المرجع السابق ، ص: 24.
[4] - نفسه ، ص: 24.

المحدثين الذي أخذ مواد سيرته، مع بعض الأثر البسيط للقصص، وهذا لعدم الإسناد فيها، وبالتالي عدم الثقة فيها. حيث اشتهر بقوة الإسناد في رواياته.[1]

موسى بن عقبة (ت 141هـ/ 758م) وهو من تلاميذ الزهري، وقد اتبع أسلوب مدرسة المدينة بدقة، فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدي اهتماما خاصا بذكر تواريخ الحوادث. وقد استفاد من مواد مكتوبة خاصة آثار أستاذه الزهري، إضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية.[2]

محمد بن إسحاق: (ت 151هـ/ 761م) الذي وصل إلينا منه أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكليتها.

وهو يمثل تطورا في كتابة التاريخ والسيرة النبوية، وذهب أبعد من حدود مدرسة المدينة، سواء كان ذلك في نظرته التاريخية أو في أسلوبه. فقد جمع بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته، واستفاد من نواحي الاهتمام المختلفة بالمغازي وتواريخ الأنبياء، فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية والإسرائيليات والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع.

أما مصادره: فهي خليطا يجلب الانتباه، ففي المبتدأ يروي عن أهل الكتاب، وعن الداخلين الجدد في الإسلام، وأخذ كثيرا عن وهب بن منبه، وعن العجم، وروى قصصا عربية قديمة، وأقاصيص من أصل يماني، أما رواياته عن مدة الرسالة فترجع في جوهرها إلى أساتذته في المدينة، مع إضافات حصل عليها ببحوثه. بالإضافة إلى الوثائق والمواد المكتوبة والروايات والأخبار الشفوية.[3]

محمد بن عمر الواقدي (130- 207هـ/ 748- 823م) تطورت الدراسات التاريخية لديه، وهو مؤلف كتاب المغازي، جمع فيه غزوات الرسول وسراياه، واقتصر على المدة المدنية، وأسلوبه ومادته أكثر دقة مع مدرسة المدينة. وهو في هذا أكثر دقة من ابن إسحاق في استعمال الإسناد وفي تحقيق تواريخ الحوادث.[4]

ابن سعد (ت 230هـ/ 844م) صاحب كتاب الطبقات الكبرى

مدرسة الإخباريين:

أبو مخنف (157هـ/ 774م) إخباري كوفي، له اهتمام بالأنساب. وقد كتب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق وعن الشورى وصفين، وعن الحوادث التالية في العراق حتى نهاية العصر الأموي وبخاصة الثورات والمعارك، وعن الخوارج، ووضع ذلك في كتب تجاوزت الثلاثين، ويعد أبو مخنف من أميز الاخباريين في العراق، تساهل في الإسناد واستعمل الروايات العائلية والقبلية.[5]

---

[1] - نفسه ، ص: 27 ، 28.

[2] - الدوري ، نفسه ، ص: 31.

[3] الدوري ، المرجع السابق ، ص: 33 ، 34.

[4] - نفسه ، ص: 36.

[5] - نفسه ، ص: 40 ، 41.

عوانة بن الحكم (147هـ/ 764م) اخباري كوفي متضلع في الشعر والأنساب.[1]

سيف بن عمر (ت 180هـ/ 796م) كوفي كتب كتابين الأول عن الردة والثاني عن الفتوحات جمع بين المدرستين.

نصر بن مزاحم (212هـ/ 827م) وهو كوفي، أول إخباري شيعي.

المدائني (135-225هـ/ 752-839م) بصري، استقر ببغداد، وصلت معه دراسات الإخباريين قمتها، ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى ممن سبق نتيجة للتطورات الثقافية. ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أوفى للروايات التاريخية، نتيجة التآليف السابقة لأبي مخنف وابن إسحاق والواقدي.[2]

ويمثل المدائني درجة أعلى من أسلافه في البحث والدقة. ويظهر أنه اتبع أسلوب المحدثين في نقد الروايات، وبذا صار يتمتع بثقة أكثر من أسلافه. ثم إنه توسع أكثر ممن سبقه في الأخذ من روايات المدينة، واستفاد من روايات البصرة، بخاصة عن الخوارج وعن مدينة البصرة وعن فتوح خراسان وما وراء النهر. وقد جاء المدائني بأخبار أوفى وأكثر توازنا ممن سلف عن الحوادث والموضوعات التي تناولها. وقد أيد البحث الحديث دقته، وصار المصدر الأساسي للمؤرخين التالين.[3]

وخدمت دراسات الأنساب علم التاريخ في المادة وخطة الكتابة فقد تجددت العناية بالأنساب في الإسلام.

دور وهب بن منبه في الكتابة التاريخية:

ومن المناسب أن نتحدث عن وهب بن منبه (ت 110هـ/ 728م) الذي كان له أثر في الكتابة التاريخية من خلال إدخاله للقصص والإسرائيليات، فهو يماني المولد والثقافة، وقد جاء بوجهة غريبة عن مدرسة المدينة.[4]

فقد اعتمد على أسلوب القصص، والأساطير، وانعدام الإسناد في رواياته، اعتنى بالإسرائيليات، وهي قصص وأساطير عن العهد القديم (التوراة)، أراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية، وبها أدخل عنصر القصص إلى الدراسات القرآنية.

أما مصادر مادته فقد استقاها من قصص كعب الأحبار (ت 32- 34هـ/ 652- 654م) وعبد الله بن سلام (ت حوالي 40هـ/ 660م) بالإضافة إلى قصص أهل الكتاب الذين اتصل بهم، ومن قراءاته للكتب المقدسة.

وقد كان كتابه (المبتدأ) أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات، بدأ فيه بداية الخليقة والبشرية، وتدرج إلى تاريخ العهد القديم، ثم إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن.[5]

---

[1] - نفسه ، ص: 42.

[2] - نفسه ، ص: 45.

[3] - الدوري ، المرجع السابق ، ص: 45 ، 46.

[4] - نفسه ، ص: 29.

[5] - نفسه ، ص:29 ، 30.

أما بالنسبة لمكانته العلمية، فإن وهب بن منبه لم يكن دقيقا، بل إنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب، لذا فإنه يعد إخباريا قاصا، ويعد السخاوي أخباره ير جديرة بالمؤرخين الجديين. وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة لوجهة المحدثين في المدينة. ولكنه جعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام، وقدم أول نموذج للتاريخ العالمي متمثلا في تاريخ الرسالات. وهذا الاتجاه وجد صدى قويا عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة، هو ابن إسحاق.[1]

شهد النصف الثاني للقرن الثالث الهجري ظهور مؤرخين لا تحدهم مدرسة أو اتجاه من الاتجاهات المذكورة، بل حاولوا أن يستفيدوا من مواد السيرة ومن كتب الإخباريين ومن كتب الأنساب والمصادر الأخرى المتيسرة، وشملت دراستهم الأمة بصورة منظمة. وكان عملهم انتقاء المادة بعد النقد، وأفقهم عاما أو عالميا. من أمثال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279هـ/ 892م) وله كتابان مهمان هما فتوح البلدان وأنساب الأشراف.[2]

واليعقوبي (ت 284هـ/ 897م) في كتابه البلدان وهو كتاب في الجغرافية التاريخية وهو أول مؤلف من نوعه في العربية.[3]

ابن قتيبة (ت 270هـ/ 883م) وكتابه االمعارف وهو دائرة معارف تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية المختلفة.[4]

الطبري (ت 310هـ/ 923م) وكتابه تاريخ الرسل والملوك وهو يمثل قمة ما وصلت إليه الكتابة التاريخية عند العرب في مدة التكوين.[5]

فوائد التاريخ:

منها: معرفة الآجال، وحلولها وانقضاء العدد، وأوقات التآليف، ووفاة الشيوخ، ومواليدهم، والرواة عنهم، فتعرف بذلك كذب الكذابين وصدق الصادقين.

قال الله تعالى:" يأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه" سورة البقرة الآية 282.[6]

عند التدقيق في تطور الحركة التاريخية عند المسلمين نجد أن هناك ثلاث مداس، المدرسة الأولى في الظهور هي المدرسة اليمنية التي يمثلها ابن شريه، ووهب بن منبه. وهي المدرسة التي تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى وهي تعنى بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن. وتورد التاريخ قصصا خيالية وأساطير شعبية. فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصاص الشعبيين، أو الإخباريين وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية.

[1] - الدوري ، المرجع السابق ، ص: 31.
[2] - نفسه ، ص: 56.
[3] - الدوري ، المرجع السابق ، ص: 58.
[4] - نفسه ، ص: 61.
[5] - نفسه ، ص: 63.
[6] - السيوطي ، جلال الدين ، الشماريخ في علم التاريخ ، تقديم ، عبد الرحمن حسن محمود ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، 1411هـ/ 1991م ، ص: 17.

أما المدرسة الثانية فهي مدرسة المدينة، وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين من أمثال أبان وعروة والزهري. وهي مدرسة التاريخ العلمي الدقيق الذي يعنى بالسيرة والمغازي، ويسير على خطى علم الحديث، ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين.

والمدرسة الأخيرة هي مدرسة العراق، التي يمثلها عوانة وأبو مخنف فيما بعد والكلبي وغيرهم. وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ الجاهلي والإسلامي. وتعطي عناية خاصة لتاريخ الخلفاء، وكان من أثر عنايتهم تلك أن احتل العراق المركز الأول في هذه التواريخ، ولذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة مطولة لدينا، بينما الأمصار الأخرى لا تنال غير الإشارات.[1]

[1] - حسين نصار ، نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، منشورات إقرأ ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1400هـ / 1980 ، ص: 96 ، 97 ، 98. هـ /

محاضرة 2: المدرسة الماركسية

الماركسية من الفلسفات الغربية التي أثرت في علم التاريخ ودراسته وتفسيره، والتي بنت أفكارها على أساس مادي وعلى الصراع بين الطبقات نتيجة التناقضات الموجودة في المجتمع، ويمكن تلخيص أفكار هذه المدرسة كما يلي:

أصول المادية التاريخية:

تبدأ عند سان سيمون الذي يعتبر من ألمع رجال الفكر الثوري في فرنسا، بل أوروبا كلها. عاش سان سيمون فيما بين سنتي 1760 و1825م فهو من الممهدين للثورة الفرنسية وصانعي فلسفتها، وهو يحسب في العادة بين علماء الاجتماع أو الاقتصاديين. وهو نفسه كان يقول إن ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية، وكان يحسب أنه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلا فيزيائيا أن يجعل من التاريخ علما يقينيا كغيره من العلوم الطبيعية. ولكي يصل إلى ذلك عكف على دراسة تاريخ أوربا منذ سقوط روما، واهتدى إلى أن هذا التاريخ يلخص في صراع متصل بين العاملين (زراع وصناع)، ويسميهم بالطبقة الثالثة tiers-Etat، والطبقتين الممتازتين اللتين تستفيدان من جهود العاملين، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الإقطاع) وطبقة رجال الدين أو الإكليروس، وقد أبدى سان سيمون ذكاء بعيدا في دراسته تلك، وشرح لنا كيف أن الملوك أيدوا الطبقة الثالثة في صراعهم مع أمراء الإقطاع خلال العصور الوسطى. ومن مظاهر هذا التأييد تلك الحقوق التي منحوها للسكان المدن من تجار وصناع الذين كانوا يكرهون أمراء الإقطاع الذين كانوا يستغلونهم، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الغنية Les Bourgs، وسكانها (وهم البرجوازيون) Les Bourgeois، الذين تزعموا الطبقة الثالثة في نضالها مع أمراء الإقطاع. ثم قادوها بعد ذلك في صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها).

وبذلك يكون سان سيمون أول من تنبه إلى أنّ صراع المصالح الاجتماعية، أو مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية، وهو أول من تنبه إلى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ.[1]

كارل ماركس والتفسير المادي للتاريخ:

تأسست هذه المدرسة على يد الفيلسوف الألماني كارل ماركس(ت 1883 م)، وإليه تنسب، مع زميله الفيلسوف فريدريك أنجلز(ت 1895 م)، وقد لخصت أفكار هذه الفلسفة في كتاب" رأس المال "الذي ألفه ماركس سنة

[1] - حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 ، ص: 112.

1867 م الذي حلل فيه آليات النظام الاقتصادي الرأسمالي، مستفيدا من قراءته النقدية للفلسفة الألمانية(هيجل، فيورباخ)..خاصة جدلية هيجل، والفلسفة الفرنسية (سان سيمون، برودون) والاقتصاد السياسي البريطاني (ريكاردو، سميث، وميل)بالإضافة إلى الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها أوربا في ذلك العصر، ثورة صناعية، واحتجاجات عمالية.

-تعريفها:

الماركسية نظرية مادية، أي أن الوجود المادي هو الذي يحدد الوعي، وأن العالم موجود ومستقل عن الوعي وهم قائم منذ الأزل ولا خالق له ولا حدود له في الزمان والمكان، وأنه يتطور لا بفعل قوى خارجية وإنما بفعل قوى داخلية، والواقع المادي هو الأساس. أما ما هو روحاني ومثالي فهو في مصاف ثانوي. والوعي هو نتاج الواقع المادي وانعكاس له، والانسان هو خالق الأفكار وكل التصورات وهو الفاعل الرئيسي في الطبيعة والتاريخ.

كما أن الماركسية نظرية مادية جدلية Dialectique أي أنها تعتبر كل ظاهرة يجب أن تدرس في إطار ديناميكية تتعارض في صلبها القوى المتناقضة .فكل ظاهرة تحمل في داخلها الشيء ونقيضه.

والمقاربة الجدلية مختلفة عن المقاربات الأخرى، فهي تقوم على أساس العناصر المتناقضة الكامنة في صلب الأشياء. وتعتبر الماركسية أن الطبيعة والبشر يخضعان لقوانين، تتحقق في الطبيعة بصفة لا واعية، أما في المجتمع البشري فإن القوانين الاجتماعية تتحقق بفعل النشاط الواعي للبشر، أي بفعل العامل الذاتي، والبشر لا يخلقون القوانين بأنفسهم وإنما هم يتدخلون لكبح تأثيرها، أو توسيع حدودها بدافع حاجاتهم أو مصالحهم.

إن القوانين موجودة موضوعيا وبصفة مستقلة عن وعي البشر، والقانون هو التعبير عما يعتمل في العالم المادي من ترابطات ضرورية ورئيسية ومستقرة نسبيا ومتواترة، وهذه الترابطات هي التي تحدد في ظروف معينة طابع التطور، وتسمى مجمل هذه القوانين بـ "المادية التاريخية "وهي تطبيق المادية الجدلية بصفتها فلسفة على تاريخ المجتمعات.[1]

-مبادئ المادية التاريخية:

- إن الطريقة التي ينظم بها البشر إنتاج حاجاتهم المادية هي العامل المحدد في نهاية التحليل للتاريخ البشري، وأن العامل الاقتصادي هو المحدد والمفسر لحركة التاريخ.
- نمط الإنتاج هو الذي يحدد التاريخ والأشكال الاجتماعية المتنوعة .ونمط الإنتاج هو تداخل بين قوى أنتاج معينة (أرض، مال، مصنع)..وعلاقات انتاج معينة(السيد والعبد، الاقطاعي والقن، الرأسمالي والعامل.)..
- تطور المجتمعات تضطلع به البنى الفوقية للمجتمع مثل المؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية.
- الفاعلون الرئيسيون في التاريخ هم العمال، وليس القادة والزعماء والمفكرون.

[1] - التيمومي ، المدارس التاريخية ، ص: 125. حسين مؤنس ، التاريخ والمؤرخون ، ص: 115 ، 116 ، 117 ، 118.

- الطبقات الاجتماعية وليدة الملكية الفردية لوسائل الإنتاج وفي مقدمتها الأرض، وعلاقة هذه الطبقات بعضها ببعض هي علاقات صراع.
- الدولة جهاز في خدمة الطبقة المهيمنة اقتصاديا وليس جهازا محايدا أو فوق الطبقات.
- صراع الطبقات سيؤدي إلى ديكتاتورية البروليتاريا (العمال) وإلى قيام مجتمع خالي من الاستغلال ومن الطبقات ومن الدولة.
- تعتبر الماركسية نفسها نظرية في خدمة البروليتاريا التي ستسود المجتمع يوما وتصبح آنذاك قادرة على تحديد القوانين العلمية للتاريخ وللمجتمع[1].

إيجابيات المدرسة الماركسية:

يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- تأكيدها على البعد التاريخي للإنسان القائم على التغير المتواصل، وقطعت مع صورة الإنسان الموروثة منذ زمن بعيد، وهي صورة الإنسان ذي الجوهر الثابت المستقل عن الزمان والمكان.
- الاهتمام بالتاريخ الطويل المدى وإدراج أي حدث ضمن المسيرة الإنسانية منذ فجر التاريخ.
- إعطاء أهمية للمتحول وللمتغير على حساب الثابت والراكد.
- اعتبار عدم وجود اقتصاد سياسي أو تاريخ أو جغرافيا أو علوم قانونية أو .. مستقلة، وإنما يوجد علم واحد هو علم التاريخ وعلم تاريخي وجدلي ووحيد وموحد، يهم المجتمع بصفته "كلا".
- إعطاء دور هام للعامل الاقتصادي في صنع الأحداث التاريخية، وتحقيب التاريخ الإنساني بالاعتماد على أنماط الإنتاج لا بالاعتماد على الأسر الحاكمة أو الحضارات أو أي شيء آخر.
- الاهتمام بدور الجماهير في صنع التاريخ وبكل الذين غيبهم المؤرخون عن قصد وبغير قصد من عمال وحرفين وعبيد ومزارعين ومشردين ...[2]

أهم الانتقادات الموجهة للمدرسة الماركسية:

- اهمالها للعوامل السياسية والثقافية والدينية في تفسير حركة التاريخ، وسقوطها النظرة الأحادية التي ترجع أي حركة في التاريخ إلى العامل الاقتصادي.
- تصورها أن التاريخ البشري هو تاريخ صراع بين الطبقات لا مجال فيه للإنسانية والرحمة والقيم الأخلاقية العالية.
- ربط الوعي في المجتمع بالجانب المادي وهو أساس أي نظام في المجتمع سياسيا كان أو اقتصاديا أو ثقافيا أو دينيا.[3]

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 126.
[2] - الهادي التيمومي ، المدارس التاريخية الحديثة ، دار التنوير للطباعة والنشر ، لبنان ، ط1 ، 2013. ص: 128 ، 129.
[3] - التيمومي ، امرجع السابق ، ص ص: 129 ، 132.

محاضرة 3: المدرسة الوضعية

تنسب المدرسة الوضعية إلى AUGUSTE COMTE أوغوست كونت مؤسسها، والمؤسس الحديث لعلم الاجتماع.

ولد 1798 أوغست كونت في مونبولييه جنوب فرنسا من أسرة ملكية وكاثوليكية. تعلم في كلية الهندسة الشهيرة في باريس بين 1814- 1816 . في سنة 1818 التقى بسان سيمون، وصار تلميذا مخلصا له طوال ستة أعوام في خلالها أحس كونت بضرورة أن يستقل بفكره عن فكر سان سيمون.

في سنة 1826 صار يلقي محاضرات في كلية الهندسة عرض فيها مذهبه الوضعي وكان يحضرها عدد كبير من رجال العلم، لكنه وقف محاضراته لبضعة أشهر بسبب انهيار عقلي أصابه من فرط الإجهاد. ثم استأنف محاضراته التي طبعت بين 1830و 1842 تحت عنوان " محاضرات في الفلسفة الوضعية" وهي أعظم أعماله العلمية.

ساءت أحواله بعد أن فصل من عمله في كلية الهندسة نتيجة حسد زملائه له، وكان يعتمد في عيشه على معونات تلاميذه والمعجبين به خصوصا في انجلترا، مثل ج ستيوارت مل وغروت.

توفي في 12/5/ 1857بباريس ودفن بمقبرة الأب لاشيز الشهيرة في مال شرقي باريس.

فلسفته:

كرس كونت حياته كلها لعرض مذهبه في الوضعية. ويمكن تقسيم تطوره إلى قسمين رئيسيين:

1- القسم الأول يتمثل في محاضراته بعنوان:" محاضرات في الفلسفة الوضعية" (في ستة أجزاء، سنة 1830-1842)

2- والقسم الثاني يتمثل في المؤلفات التالية:

أ- التقويم الوضعي سنة 1829

ب- الوضعية على طريق السؤال والجواب سنة1852.

ت- المذهب الذاتي سنة 1856.

ومذهب كونت في القسم الأول يتعارض في جوهره مع اتجاهه في القسم الثاني، وهو أمر أدركه تلاميذه وآخذوه عليه، فقال "ليتري" Littré " إنه استبدل بالمنهج الموضوعي منهجا ذاتيا"، وقال جون استيوارت مل " إن هذا تحول شاذ

غريب في تطور فكر كونت: فبينما " المحاضرات" تحتوي على نظرة سليمة في الفلسفة، مع بعض الأخطاء البارزة، فإن المؤلفات المتأخرة زائفة ومضللة".

وفيما يلي عرض لأهم آراء كونت:

1- قانون الأطوار الثلاثة: وهو القانون الذي حدد كونت وفقا له تقدم التفكير الإنساني. يقول كونت في هذا القانون إن تطور التفكير الإنساني قد مر بثلاثة أطوار هي:

أ- الطور اللاهوتي ب- الطور الميتافيزيقي ج- الطور الوضعي.

على هذا الترتيب، وقد شرح هذه الأطوار كما يلي:

أ- الطور اللاهوتي: هو بداية التفكير الإنساني، و فيه يفسر الإنسان كل الظواهر بردها إلى أسباب خارقة على الطبيعة، فيقرر أن ثمة عللا خفية فوق طبيعية هي التي تحدث المطر و الرعد و الزلازل و البراكين و نمو الأشجار و موت الأحياء ..، وهذه القوى الإلهية يسميها آلهة أو عفاريت أو أشباحا،... و في هذا الطور يسعى الإنسان إلى معرفة "الطبيعة الباطنة للموجودات" و العلل الأولى و النهائية لكل المعلولات التي تلفت انتباهه. وهو يهدف إلى المعرفة الكاملة، ويتصور الظواهر على أنها ناتجة عن التداخل المباشر لعوامل خارقة على الطبيعة.

ب- الطور الميتافيزيقي" وهو في نظر كونت مجرد تعديل للطور اللاهوتي، وهما يشتركان في خصائص عديدة. ففي هذا الطور الميتافيزيقي يريغ الإنسان إلى البحث عن العلل الأولى، والوصول إلى معرفة المطلق. لكنه يستبدل في هذا الطور بالعوامل الخارقة على الطبيعة " قوى مجردة يتصور أنها قادرة بنفسها على إحداث كل الظواهر المشاهدة".

ت- الطور الوضعي: أما في هذا الطور فيكتفي الإنسان " بالمعرفة النسبية" معرفة الظواهر وعلاقاتها بعضها ببعض، وينبذ تجريدات الميتافيزيقا. فقانون الجاذبية الذي وضعه نيوتن هو نموذج التفسير في الطور الوضعي: إنه يفسر مجموعة هائلة من الظواهر المتنوعة، لكنه لا يقول شيئا عن الثقل والجاذبية كما هما في ذاتيهما، فهذه أمور يمكن أن نتركها لتخيلات اللاهوتيين وتدقيقات الميتافيزيقيين.

2- الفلسفة الوضعية:

وهذا الطور الوضعي هو الذي تمثله الفلسفة الوضعية التي دعا إليها كونت وقد حدد خصائصها على النحو التالي: " إن الخاصية الأساسية للفلسفة الوضعية هي **النظر إلى كل الظواهر على أنها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة**، اكتشافها الدقيق وردها إلى أقل عدد ممكن هو الهدف من كل جهودنا، في الوقت الذي نعتبر فيه أن البحث عما يسمى بالعلل causes الأولى أو النهائية هو أمر غير مقبول وخال من كل معنى.[1]

[1]- عبد الرحمن مرحبا ، موسوعة الفلسفة ، ص 313(919)

وكونت يريغ إلى تطبيق منهج هذه الفلسفة على علوم الجماعات بعامة، وما يسمى بـ"علم الاجتماع" بخاصة: إذ رأى أن العلوم الاجتماعية كانت لا تزال في أيامه في عهد الطفولة، أو فيما يناظر الطورين اللاهوتي و الميتافيزيقي بالنسبة إلى تطور الفكر الإنساني. ذلك أن حالها اليوم (في أيامه) كحال علم التنجيم بالنسبة إلى علم الفلك، أو علم الصنعة بالنسبة إلى علم الكيمياء. والعقل في هذه المرحلة السابقة على الطور العلمي يكون " مثاليا في السير، مطلقا في التصور، اعتباطيا في التطبيق". وعلى علم الاجتماع، كي يكون علما بالمعنى الحقيقي أي الوضعي، أن يقاوم هذه الصفات الثلاث: المثالية، الإطلاق، الاعتباطية. إن عليه أن ينبذ " الأفكار المطلقة" وأن يحصر همه في التنسيق بين الوقائع الاجتماعية المشاهدة، وتكميل أدوات البحث، وعليه أن يقصر نفسه على ماهو نسبي دون أن يطمح ببصره إلى معرفة الحقيقة الواقعية الدقيقة للكشف عنها. كذلك ينبغي على علم الاجتماع أن يعيّن حدود العمل السياسي وطبيعته.

وما دام علم الاجتماع سيبحث في تقرير القوانين التي تسير عليها الجماعات في مجتمعاتها، فإنه سيكون في وسعها التنبؤ، شأنها شأن كل العلوم الوضعية. يقول كونت:" إن من الممكن التنبؤ بالظواهر الاجتماعية، شأنها شان الظواهر الأخرى".

الوضعية وعلم التاريخ:

خضع علم التاريخ لهيمنة الاتجاه الوضعي POSITIVISTE المتمثل في تطبيق قوانين علوم الطبيعة على الانسان، وذلك من أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، وألمانيا هي موطنه الأصلي، والبلد الذي كانت الرحلة العلمية إليه بمثابة المحطة الضرورية في حياة كل مؤرخ يحترم نفسه وصناعته، وقد أنتجت ألمانيا مؤرخين وضعيين مرموقين مثل **"تيودور مومسن" تـ 1903م**، وليوبولد فان رانكه تـ1896م، كما برز في فرنسا مؤرخون وضعيون مثل أرنست رينان تـ 1892، وأرنست لافيس تـ 1922، شارل سينيوبوس تـ.1942م، وغيرهم كثير

وقد جاء هذا الاتجاه الوضعي كرد فعل على أزمة العلوم الانسانية وعلم التاريخ، من خلال اتخاذها للعلوم الطبيعية أسوتها ومثالها، نتيجة ما حققته من انتصارات بواسطة المنهج الذي اعتمدته في دراستها وهو المنهج التجريبي. إن الاتجاه الوضعي يعتبر العلوم القائمة على التجربة وعلى المشاهدة المصدر الوحيد للمعرفة، وتنكر القيمة المعرفية للفلسفة وللميتافيزيقيا وللتفكير القائم على التجريد.[1]

ظهرت هذه المدرسة في وقت قويت فيها حركة القوميات بأوربا في أواخر القرن 19م و في إطار الجمهورية الفرنسية الثالثة و عزمها على استعادة منطقة الألزاس و اللورين و برنامجها الإستعماري التوسعي.

[1] التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 83.

أفصح رائد عن مبادئ هذه المدرسة بفرنسا هو المؤرخ مونو (G.Monod) في البيان الذي نشره في 1876م بمناسبة صدور العدد الأول من "المجلة التاريخية" (La Revue historique) وقد تمثلت في:

- فرض بحث علمي في التاريخ بعيد عن كل المزايدات الفلسفية.
- بلوغ الموضوعية المطلقة في مجال التاريخ.
- تطبيق تقنيات صارمة في جرد الوثائق و نقدها.[1]

و مما ساهم في نمو هذه المدرسة تواجد مؤرخيها ضمن إطار التدريس بمختلف الجامعات و على رأس إدارة بعض المجموعات العلمية و التاريخية الكبرى مثل تاريخ فرنسا، التاريخ العام، و شعوب و حضارات. كما ساهم هؤلاء المؤرخون في ضبط البرامج التعلّميّة و تأليف الكتب المدرسية لتلاميذ المعاهد الثانوية و المدارس الابتدائية و التي من خلالها عملوا على غرس في الناشئة قيم النظام الجمهوري و تغذية الشعور القومي و تدعيم السياسة الاستعمارية التوسعية، و بالتالي فأنهم حرصوا على تمرير خطاب إيديولوجي معين.[2]

ولئن أعلنت "المجلة التاريخية" ومن ورائها أنصار المدرسة الوضعية حيادها وعدم انحيازها في كتابة التاريخ وصدها عن النظريات السياسية والفلسفية وتسخير نفسها " للعلم الوضعي" الذي هو التاريخ فقد انتصبت هذه المدرسة مدافعة عن نظام أخلاقي قائم على تنمية الشعور القومي الذي يستمد جذوره من الماضي، أي من التاريخ، الذي لابد أن يدرس اعتمادا على **الوثائق المكتوبة وبالتركيز على الوقائع**. أما مهمة المؤرخ الرئيسة فهي **تجميع الوثائق** و العمل على **صيانتها** و **حفظها** في دور الأرشيف و **استغلالها بكل تجرد و حياد** على غرار ما كان دعا إليه من قبل رائد المدرسة الوضعية المؤرخ الألماني **ليوبولد فان رانكه** الذي عاش ما بين 1795- 1886.

فهذا المؤرخ الألماني قد سيطر على الكتابة التاريخية في منتصف القرن 19م من خلال نظريته القائمة على المبادئ التالية:

- تتمثل مهمة المؤرخ في وصف ما وقع حقيقة في الواقع في الماضي و ليس في تقييم ذلك.
- حياد المؤرخ التام تجاه الأحداث التي يكتب عنها.
- التاريخ هو بمثابة المرآة العاكسة للماضي و على المؤرخ تسجيل الحدث بكل تجرد و موضوعية.[3]

[1] فريد بن سليمان ، مدخل إلى دراسة التاريخ ، ص: 104.
[2] - نفسه ، ص: 105
[3] - نفسه ، ص: 106.

أخذت المدرسة الفرنسية عن المدرسة الألمانية تلك المبادئ خاصة و أن جل أفرادها (مونو، لانجلوا، سينيوبوس، لافيس..) قد أقاموا بعض الوقت بألمانيا ودرسوا بجامعتها فنقلوا إلى فرنسا أفكار رنكه ونظرياته في كتابة التاريخ ونقد الوثائق ودور المؤرخ في كل ذلك. ويعترف مؤرخو المدرسة الوضعية بفرنسا بالخدمات الجليلة التي قدمها المؤرخون الألمان إلى البحث التاريخي أمثال رنكه، نيبور، مومسن، لاسن وغيرهم وما قاموا به في مجال تجميع الوثائق في فهارس متميزة كالتي خصصت للنقائش...

فالتاريخ في نظر الوضعيين هو قبل كل شيء انعكاس محتوى الوثائق المكونة لرصيد المؤرخ المعرفي.
فعلى هذا الأخير البحث عنها والعمل على حفظها وصيانتها في المتاحف والمكتبات العمومية والخاصة ودور الأرشيف وضبطها في فهارس. ثم يقوم المؤرخ في مرحلة أخرى بنقد الوثائق على المستويين الخارجي والداخلي. وتلي هذه المرحلة التحليلية عملية التأليف التي تتم بدورها على مراحل: مقارنة الوثائق، تجميع الأحداث في أطر عامة مثل المعطيات الطبيعية والأنشطة الاقتصادية و الفئات الاجتماعية و المؤسسات السياسية..، إقامة العلاقات بين هذه الأحداث و أخيرا التأليف. ونظرا لتشعب العمليات يستحسن تقسيم العمل.

إلا أن هذه المدرسة التي كانت تدعو نظريا إلى الموضوعية المطلقة كرست في الواقع انتاجها لخدمة مبادئ الجمهورية الثالثة ونزعتها الاستعمارية بواسطة خاصة كل من محتويات " المجلة التاريخية" والكتب المدرسية. فقد ساهم مؤرخو المدرسة الوضعية في وضع الكتب المدرسية خاصة في مواد التاريخ والجغرافيا والتربية المدنية حيث الخطاب الايديولوجي مركز على حب الوطن والنظام الجمهوري تعليل الظاهرة الاستعمارية على أن لها رسالة حضارية و تجعل من البلد المستعمر قوة اقتصادية.[1]

الوضعية LE POSITIVISME

لقد كانت العلموية LE SCIENTISME هي الفكرة – القوة (idée-force) في هذه الفترة، والعلموية هي الإيمان المطلق بقدرة العلوم التجريبية على حل كل القضايا و معرفة كل الأشياء، و قد حققت العلوم بداية من أواسط القرن التاسع عشر قفزة عملاقة خاصة في ميادين علم الأحياء و الكيمياء و علوم الطبيعة على أيدي علماء أفذاذ مثل شارل داروين ومارسلان برتلو وهربرت سبنسر وكلود برنار. وعاشت أوربا الغربية منذ ثمانينات القرن التاسع عشر " الثورة الصناعية الثانية" القائمة على الكهرباء والمحرك الانفجاري. وقد جسم المعرض العالمي عام 1900م بباريس كأحسن ما يكون التجسيم هذا التقدم الهائل الذي حققته العلوم والتكنولوجيا، وفي عام 1905م بلور الفيزيائي

[1]- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص ص 106. 107.

البار اينشتاين النظرية الأولى في النسبية وهي من أعظم الثورات العلمية في تاريخ الانسانية. وفي نفس السنة صاغ نظرية الفوتون وهي جزئية من الضوء مواصلا بذلك نظرية الكوانتا التي جاء بها عام 1900م ماكس بلانك.[1]

ونشأ في ميدان العلوم الإنسانية علم جديد هو علم الاجتماع على أيدي علماء فرنسيين مثل أوغست كونت وإميل دوركهايم وبعض العلماء الألمان. وقد دار في هذه الفترة بين 1895م و1905م حوار ساخن بين المؤرخين وعلماء الاجتماع، وكان دوركهايم ينزع إلى اعتبار التاريخ مجرد تقنية لتجميع المعلومات لصالح علم الاجتماع، وأن علم الاجتماع هو العلم الوحيد القادر على فهم منطق الأحداث. أما المؤرخون من أمثال سينيوبوس ولانجلوا، فأكدوا خصوصية مقاربة المؤرخ، واقترحوا تقسيما للعمل بين المؤرخين وعلماء الاجتماع. على المؤرخين التخصص في دراسة الماضي، وعلى علماء الاجتماع التخصص في دراسة الحاضر.

ومن بين الاختلافات الأخرى بين المؤرخين وعلماء الاجتماع آنذاك هو اقتراح علماء الاجتماع أن يقتصر التاريخ على رواية الأحداث، بينما يهتم علم الاجتماع باستخراج قوانين تطور المجتمع أو على الأقل ظواهره المتكررة.

لقد كانت الأوضاع السياسية البارزة في هذه الحقبة هي: أيام جوان 1848 وهزيمة فرنسا عام 1870 أمام الألمان وكومونة باريس (La Commune de Paris) عام 1871. وكان انهزام فرنسا أمام الألمان كارثة حقيقية بالنسبة إلى المثقفين الفرنسيين الذين كانوا يكنون إعجابا منقطع النظير بألمانيا و بثقافتها المبدعة. و ساد الشعور في فرنسا بضرورة تدعيم الجمهورية الثالثة و إعداد العدة للإنتقام من ألمانيا و استرجاع مقاطعتي الألزاس و اللورين، و اعتبر التاريخ أداة ناجعة لتحقيق هذه الأهداف. و قد أصبح التاريخ عام 1881 مادة إجبارية في التعليم الثانوي و في عام 1880 أصبح يدرس من الابتدائي إلى الباكالوريا. أما بداية من 1902 أصبح تاريخ فرنسا يدرس في التعليم الثانوي و يغطي كل العهود، من العهود القديمة إلى 1902. و كان المؤرخ ارنست لافيس يلقب ب"المعلم القومي"، أما الفيلسوف أرنست رينان فقدم تعريفا "إراديا" volontariste للقومية بغية رفع معنويات الشعب الفرنسي و استرجاع ثقته بنفسه بعد نكبة 1870.[2]

لقد أصبح السؤال الذي يراود المفكرين و المؤرخين هو : أليس ثمة وراء هذا الحشد الفوضوي من الأحداث و الهزات التي زعزعت فرنسا و أوربا منطق مستتر؟ إن الرأي السليم في طرحهم هو الذي يذهب إلى أن الحياة التاريخية لم تعد ترعاها العناية الإلهية، و إنما صار فيها الإنسان صاحب الإرادة الحرة، يفعل ما يحلو له و ما يريد. بل لقد صار هؤلاء المفكرون يعيشون – خاصة المحافظون منهم- نوعا من الهلع أمام التاريخ.

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 85.
[2] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 86.

تأثر المؤرخون بعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت (ت 1857) صاحب نظرية الوضعية positivisme فما هي هذه النظرية ؟

هي نظرية تطورية غائية تعتبر العامل الثقافي محرك التاريخ البشري، فكل إنسان أو مجتمع فرع من فروع المعرفة يمر حتما بالمراحل الثلاث التالية: **المرحلة اللاهوتية أو الوهمية** والمتمثلة في الشغف بالمسائل التي لا حل لها، أي بالمعارف المطلقة، واعتبار كل الظواهر نتاج التدخل المباشر والمتواصل للعناصر ما بعد الطبيعية. و المرحلة الثانية هي **المرحلة الميتافيزيقية** و هي مرحلة نوع من المرض الذهني، إذ تقع الاستعاضة عن العناصر ما بعد الطبيعة بقوى غامضة وبكيانات قادرة على أن تفرز بنفسها كل الظواهر، الدولة – حقوق الإنسان– الله– الروح المطلقة لدى هيغل.. . أما المرحلة الثالثة والأخيرة، **فهي المرحلة الوضعية** وهي مرحلة العلم، وفيها يتخلى الإنسان عن البحث عن المطلق وعن أصل الكون و مصيره، و يعتبر أن دوره يقتصر على تحديد القوانين التي تسير الظواهر الطبيعية بالاعتماد على التجربة، و يعتبر كونت أن الشرق هو مهد الدين و أن اليونان هو مهد الميتافيزيقيا و أن الغرب هو مهد العلم.

إن العقل البشري لا يحقق ذاته إلا بالوضعية حسب كونت، والعلوم الملموسة هي المصدر الوحيد للمعارف الصحيحة. أما الفلسفة والتنظيرات واختراع المفاهيم المجردة، فأشياء لا فائدة ترجى منها.

لقد كانت وضعية كونت ردة فعل ضد عدم قدرة الفلسفة وخاصة الفلسفة المثالية الألمانية الكلاسيكية على حل المشكلات الفلسفية الناجمة عن التقدم السريع والهائل للعلوم. إلا أن الوضعية لوت العصا في الاتجاه المعاكس تماما، ورفضت أي تفسير فلسفي بدعوى أنه لا يمكن لإثباته بالتجربة الملموسة.[1]

2– مواطن إضافة المؤرخ الوضعي

لقد آمن المؤرخ الوضعي بأن العلم الوحيد هو علم الطبيعة، أي العلم القائم على الرياضيات وعلى التجربة، وأن كل المشاكل العملية هي مشاكل يمكن اختزالها في مشاكل تقنية بحتة. والتاريخ هو أيضا علم من هذا القبيل، لذلك كان المؤرخ أرنست رينان يرى أن هناك إمكانية إرساء " علم دقيق خاص بأشياء الروح"، كما كان ليوبولد فان رانكه يرى أن علم التاريخ قادر على "استرجاع الصورة التي وقعت فيها أحداث الماضي فعليا".

أما فوستال دي كولانج تـ فيرى أن التاريخ ليس فنا وإنما هو علم صاف مثل الفيزياء أو علم الأحياء، الهدف منه هو العثور على أشياء معينة أو اكتشاف حقائق مخصوصة.

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 87 ، 88.

والمؤرخ الوضعي ينفر من الجزئيات والتفاصيل " التاريخ التافه" أو la petite histoire ويهتم بالتاريخ الشامخ أو la grande histoire، وذلك في إطار نظرته التاريخية التي تشمل التاريخ الإنساني ككل.

يهتم اهتماما كبيرا بالوثيقة المكتوبة، الأمر الذي أدى به إلى نشر الكثير من الوثائق المصدرية، يكتب بلغة سليمة بعيدا عن المحسنات البديعية، ويسعى إلى رواية الأحداث بموضوعية بعيدا عن الذاتية.

يحرص على استخدام الأرشيف، ويحرص أكثر على إثبات صحة الأحداث بالوسائل النقدية التي أرساها العلماء الألمان والمؤرخين آنذاك، وهي تمر عبر أربع مراحل:

- تجميع الوثائق
- نقدها داخليا (صدق مضمون الوثيقة) وخارجيا (إثبات صحة الوثيقة وتاريخها الدقيق وصاحبها وأصلها)
- ضبط الأحداث
- وأخيرا تنظيم هذه الأحداث ضمن سياق سردي كرونولوجي.

المآخذ التي لوحظت على المؤرخ الوضعي:

اعتباره الظاهرة الإنسانية مثل الظاهرة الطبيعية، تخضع للأدوات الرياضية والقياس.

بعده عن الموضوعية التي دعا إليها في الكتابة التاريخية لتبنيه القومية الشوفينية ودفاعه المستميت عن انتمائه وتسخير التاريخ لبث القومية بين أفراد المجتمع.

اقصاؤه للمصادر الشفوية كمصدر من مصادر الكتابة التاريخية واعتماده فقط على الوثائق المكتوبة.

وفي الأخير يمكن القول أن شعار المؤرخ الوضعي القائل إن التاريخ علم خالص لا يختلف في شيء عن العلوم التجريبية الدقيقة، شعار أفاد علم التاريخ فائدة كبيرة، رغم المآخذ التي سجلت على المؤرخ الوضعي، وذلك أنه تميز بدقته المنهجية، خاصة ما تعلق بالمصادر المكتوبة من حيث تجميعها ونقدها نقدا داخليا وخارجيا، وتحقيقاته التي يقوم بها من أجل جمع ما أمكنه من الأدلة قبل إصدار أي حكم.[1]

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 88، 89.

محاضرة 4: مدرسة الحوليات

مرت الدراسات التاريخية بثورتين منهجيتين: الأولى بعد هزيمة 1870 حيث تميزت بظهور الوضعانية المتأثرة بالمنهجيات الألمانية في حقل التأليف التاريخي. ودشنت هذه المرحلة بتأسيس " المجلة الألمانية" 1876 التي توجت بإصدار كتاب " المدخل للدراسات التاريخية" للانغلوا وسينيوبوس. والثانية قام بها L.FEBVRE وM.BLOCH عندما عينا في جامعة ستراسبورغ 1919 بعد استردادها من الألمان, وتوجت بتأسيس مجلة "الحوليات " 1929. وفي هذا الإطار ستقوم حرب سجالية بين القديم والحديث, اتخذت مناحي علمية ومنهجية وسياسية وعرقية.

– علمية ومنهجية: بين المناخ التقليدي الذي ميز السوربون ومن خلاله الوضعانية المنهجية التي هيمنت على التاريخ في شكله الحدثي– السياسي والدبلوماسي والعسكري– وبين الفكر البديل المهتم بالقضايا والإشكاليات الجديدة في مجال البحث التاريخي كحافز أولي لاستجلاء الدفين بين طيات الظاهرة التاريخية بطريقة يطبعها الدقة والشمول دون الارتباط الضيق بالوثيقة.

– سياسية عرقية: وذلك بإعطاء التاريخ روحا قوميا مستقلا عن امامية الجرمان وممثليهم الوضعانيين في فرنسا، يؤكد ذلك عدول BRAUDEL عن التوجه نحو التاريخ الألماني – وهو الملم باللغة الألمانية–حينما طرح له مشكل اختيار أطروحته بالقول:" إن هذا التاريخ – الألماني –كان يظهر لي مسمما بصفة مسبقة بالنظر لإحساساتي الفرنسية المفرطة " وكذلك لوسيان فيفر وهو المهتم بالقاعدة الاقتصادية لم يشر في كتاباته لماركس إلا ناذرا.

ومهما يكن فلقد قطعت هذه النزعة الجديدة للتاريخ الفرنسي أشواطا ومراحل. فمن "التركيب التاريخي" إلى "التركيب " إلى" حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" إلى" الحوليات: اقتصادات مجتمعات حضارات " إلى "التاريخ الجديد" وريث الحوليات. أكثر من نصف قرن (1900–1970) سيطبع روح الحوليات جل مؤرخي فرنسا، وستؤثر على بعض مؤرخي أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وأمريكا الجنوبية.

من هذا المنظور، يتوخى هذا العرض استجلاء أصول وبرنامج الحوليات، ورصد المحطات الأساسية التي طبعت مسيرة هذه المدرسة بمختلف تجلياتها الفكرية والإيديولوجية. والوقوف عند أهم انتاجات روادها الكبار، مع إبراز الدعامات المؤسساتية التي استند إليها فريق الحوليات، وبعض الانتقادات التي وجهت لاختلالاتها المنهجية والنظرية.

أولا:الحوليات LES ANNALES الأصول والبرنامج:

ترجع الإرهاصات الأولية التي استهدفت تأصيل الكتابة التاريخية بفرنسا على الأقل إلى القرن 19. وقد أعقب هذه المبادرة الأولى مبادرات أخرى لا تخلو من أهمية، حيث ستشكل أحد المنطلقات الأساسية في تجدير البحث التاريخي الفرنسي. ويتعلق الأمر هنا بالمشروع المتزامن وهزيمة 1870، إذ تأسست سنة 1876 " المجلة التاريخية " التي كانت تقليدا واعيا للمجلات العلمية الألمانية. ثم تأسيس " مجلة التركيب التاريخي" التي عبرت عن نفسها في صمت خلال العشرينيات، وبشكل أكثر علانية خلال الثلاثينيات. حيث حملت هذه النزعة الجديدة للتاريخ الفرنسي ومنذ بدايتها، شعار التصدي للوضعانية التي هيمنت منذ بداية القرن العشرين على الإنتاج التاريخي في شكله التقليدي المهلوس بالحدث، والمقيد بالوثيقة بمفهومها الضيق، والتمرد على النظام الجامعي بكل توجهاته المنهجية والمفاهيمية والعملية الذي تقوده السوربون. مقترحة برنامجا بديلا يروم فك الارتباط وإحداث قطيعة معرفية مع المشهد الذي ميز الاسطوغرافيا الفرنسية، هادفا في ذات الوقت إلى خلق نسق متلاحم من العناصر الجديدة والحاسمة في دراسة وكتابة التاريخ، وتركيز الاهتمام على القضايا الجديدة التي تمس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي والذهني، ثم توسيع حقل المعرفة التاريخية وذلك بالانفتاح على مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومواصلة الاحتكاك بها، وفرز أسلوب جديد في طرح الإشكاليات وتصور جديد لزمن التاريخ.

وانسجاما مع منظورها، ارتكز هذا التصور الجديد على معايير نظرية ومنهجية وعملية. إذ مكن البحث التاريخي من الاستفادة من " علوم الإنسان" واستغلال وتوظيف حصيلة العلوم المجاورة وإضافة تكوين أولي حول الحفريات والإحصاء واللغات القديمة... وحافظت على بعض الإسهامات العلمية التي قدمتها الماركسية، وتطبيق طرق التحليل البنيوي خاصة أعمال ك. ل. شتراوس. كما جسدت أهدافها في إعطاء بعد تاريخي زمني للمتغيرات الاقتصادية المختلفة التي يمكن حسابها من اجل إدراك الحلقات العميقة والظواهر ذات المدى الطويل نتيجة إخفاقات المشروع الرأسمالي، والقضاء على عقلية التخصص وذلك بالتشجيع على تعدد التخصصات LA PLURIDISCIPLINARITE، والمساهمة في صياغة وبلورة مسح اركيولوجي شامل لتاريخ الإنسانية، خاصة تاريخ الشعوب غير المكتوب.

ثانيا: رصد المحطات الأساسية التي طبعت مسيرة الحوليات:

1–مرحلة العشرينيات: " من التركيب التاريخي إلى التركيب "

منذ السنوات الأخيرة من القرن 19 أعطى المفكر والفيلسوف هنري بير H.BEER (1862–1955) انطلاقة حوار بين التاريخ والعلوم الاجتماعية (جغرافيا، سوسيولوجيا، علم اقتصاد...) وعيا منه بان التاريخ ليس التنقيب عن التفاصيل وإنما الأساس الذي تقوم عليه أحدث التطورات البشرية. يقول بروديل:" إن هذا الرجل هو إلى حد ما الحوليات قبل نشوئها منذ سنة 1900 وربما قبل ذلك منذ 1890، إليه يجب الرجوع إذا أردنا أن نعرف كيف بدا كل شيء".

تبدو مساهمة "بير" في تطوير المعرفة التاريخية من خلال العديد من الأعمال. لعل أهمها المقال الذي صدر له بـ" المجلة الجديدة" سنة 1890 تحت عنوان " محاولة في علم التاريخ: المنهج الإحصائي ومسالة الرجال الكبار". فضلا عن أطروحته " مستقبل الفلسفة: خطاطة لتركيب المعارف المؤسسة على التاريخ" سنة 1898 ومن خلال هذه الأعمال يمكن التركيز على نقطتين:

تأسيس مجلة التركيب "LA REVUE DE SYNTHESE " سنة 1900، والتي أشرف على إدارتها طيلة نصف قرن بنية جمع الأشكال المختلفة التي يتوزع حولها التاريخ: تاريخ سياسي، تاريخ اجتماعي، تاريخ اقتصادي، تاريخ العلوم، تاريخ الفن... محاولا زيارة هذه العلوم ومساءلتها. ولقد حظيت هذه المجلة بمساهمة تخصصات متعددة تدعو كلها إلى إدراك عميق للواقع الاجتماعي، وتحطيم الحواجز بين مختلف علوم الإنسان، والعداء للوضعانية. وكانت أعدادها ملتقى يجمع علماء اجتماع (E. DURKHEIM) جغرافيين (IDAL DE LA BLACHE) اقتصاديين (F. SIMIAND) علماء نفس (H.VALON) مؤرخين (L. FEBVRE) واستمرت هذه المجلة تحت هذا العنوان إلى سنة 1931 لتغير اسمها إلى مجلة "التركيب" واختفاء نعت "التاريخي" تبرره سيادة الفلسفة والعمومية على المجلة

تنظيم أسابيع التركيب: هي ملتقيات فكرية وندوات منتظمة لتبادل الأفكار والأخبار. شارك فيها مجموعة من المثقفين الجامعيين من بينهم: المؤرخ الاقتصادي (H. HAUSSER) والسوسيولوجي الاقتصادي (F. SIMIAND) والسوسيولوجي (M. HALBWACHS) والفيلسوف (L. BRANSCHVIQ) والمؤرخان (L. FEBVRE .M. BLOCH) إلى جانب بعض البيولوجيين والفيزيائيين. وكان فيفر المحرك والمسؤول عن الأسابيع.

بالإضافة إلى تلك الأعمال كان هـ. بير منذ 1920 يدير سلسلة هائلة صدرت في 40 مجلدا خلال فترة ما بين الحربين تدعى " تطور البشرية" "L'EVOLUTION DE L'HUMANITE".

داخل هذه الدائرة تشكلت بؤرة انبثقت عنها رغبة خلق مجلة أكثر واقعية من مجلة التركيب واقل تفلسفا، وتعتمد أبحاثا ملموسة وجديدة فمن هذه الرغبة أو على الأصح من هذه الضرورة نشأت مجلة الحوليات حينما التقى بلوك وفيفر بجامعة ستراسبورغ سنة1919, وسينتظران 10 سنوات لإصدار مجلتهما سنة1929. وخلال هذا الفاصل الزمني كانا يتعاونان بانتظام مع نير. إلا أن المتتبع للظرفية الفكرية لهذه الفترة سيلاحظ أن مجلة التركيب ظلت على الرغم من مكانتها العلمية على هامش المؤسسات الجامعية وفي حاجة إلى الشرعية الأكاديمية بينما ظهرت مجلة الحوليات، " حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" في قلب جامعة ستراسبورغ التي أريد لها أن تكون واجهة ثقافية لامعة ومجددة للفكر الفرنسي أمام ألمانيا. كما سيلاحظ من جهة أخرى أن الحوار الذي طبع

"الأسابيع " ظل حوارا نظريا محضا ولم يتجسد بشكل عملي في الأبحاث التاريخية. ففي حين فتحت "لتركيب " المجال وبإفراط لنقاشات نظرية ومفاهيمية. كانت " الحوليات تروم فتح صفحاتها " لرجال الزمن الماضي والزمن الحاضر لطرح مشاكلهم الملموسة" وأكيد أن المتعاونين مع "التركيب" شاركوا في خلق "الحوليات"

2- مرحلة الثلاثينيات : من " التركيب " إلى " حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"

يجمع اغلب الباحثين أن L. FEBVRE (1878-1956) وM.BLOCH (1886-1944) يعزى لهما الفضل في وضع لبنات وقواعد التأسيس. أي تأسيس نموذج في الكتابة و البحث التاريخيين، الذي شكل حلقة أساسية بل مركزية ضمن النسق الاسطوغرافي الفرنسي, الذي يعطي الأولوية والأهمية للبنيات الاقتصادية والاجتماعية التي ظلت سجينة الإهمال والتهميش. ولقد تجسدت مكونات هذا الطرح في افتتاحية العدد الأول من المجلة والتي سطرت مجموعة من الأهداف:

- القضاء على عقلية التخصص، وتسهيل وحدة العلوم الإنسانية.
- الاهتمام بقضايا أساسية وجديدة تمس التاريخ السوسيو اقتصادي، والديمغرافي، والذهني.
- إفراز أسلوب جديد في طرح الإشكاليات التاريخية وتصور جديد لزمن التاريخ
- الانتقال من مرحلة المجادلات النظرية التي ميزت " التركيب" إلى مرحلة الإنجازات العملية الملموسة.[1]

فما هي الظرفية الفكرية والابستمولوجية التي افرزت فكر الحوليات؟ وما هي الخلفية التي حركت مجال صياغة هذه الاهداف؟

يعتبر فكر "الحوليات" كما سلف، تتويجا لسلسلة من المجهودان النظرية والمنهجية والعملية التي استغرقت عقودا من الزمن، فوسط الحقل الثقافي الذي ميز الاسطوغرافيا الفرنسية سيوفر المؤرخان: ل. فيفر و م. بلوك شروطا لحوارات مع ثلاثة اتجاهات فكرية:

المدرسة الجغرافية مع V.DE LA BLACHE وDEMANGEON والتي كانت تقترح "مقاربة شمولية لتحليل الواقع الاجتماعي تقوم على أساس علاقة جدلية بين الزمن والمجال، وبين الجماعات البشرية والوسط الطبيعي"

المدرسة السوسيولوجية التي نشطت بفضل الفعاليات الكبيرة ل E. DURKHEIM وذلك من اجل بناء " مقاربة شمولية لفهم الواقع الاجتماعي انطلاقا من علم اجتماع موحد تصب فيه مختلف آراء علوم الإنسان "

[1] - وجيه كوثراني ، تاريخ التأريخ ، ص: 207 ، 208.

علم الاقتصاد الألماني لاسيما أعمال K.MARX وG.VON SCHOMOLLERS الذي قدم للمؤرخين الفرنسيين أطرا نظرية وأدوات منهجية أساسية للتحليل التاريخي. حتى أن تأثير المجلة الألمانية " مجلة التاريخ الاقتصادي " ظل حاضرا، ومنها تم اقتباس اسم المجلة الفرنسية الجديدة "Les Annales d'histoire économique et sociale" التي ظهرت سنة 1929.

على محك هذا الحوار النظري والاحتكاك المنهجي بين التاريخ وهذه المدارس والأفكار، فضلا عن التحدي الحضاري والثقافي الذي نسجت خيوطه أزمة 1929 وعواقبها الوخيمة وانعكاساتها على الأنساق الاجتماعية والثقافية والسياسية والنفسية برزت " الحوليات" لتسجل نقلة نوعية وكيفية في مجرى ومسار البحث التاريخي وذلك من خلال جملة من الأبحاث يمكن تقسيمها إلى نوعين متكاملين:

1- نوع مرتبط بأعمال نظرية ومنهجية حول البحث التاريخي تروم استفادة التاريخ من علوم الإنسان نذكر منها:

" معارك من أجل التاريخ " Combats pour l'histoire للوسيان فيفر L.Febvre والصادر سنة 1953 وهي مجموعة مقالات ظهرت في مجلتي التركيب والحوليات , بلغت 924 عمل ما بين مقالة وحاشية ونقد وتقرير يمتد تاريخ كتابتها من 1906 إلى 1952.

" دفاع عن التاريخ أو مهنة المؤرخ " Apologie pour l'histoire ou métier d'historien لمارك بلوك M.bloch. والصادر سنة 1941 والذي يعتبر بمثابة بيان تاريخي لم يتمكن صاحبه من إتمامه بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية. حيث أعده ونشره فيما بعد ل. فيفر تحت عنوان مزدوج. وهذا المخطوط هو عبارة عن جواب على كتاب لانغلوا وسينيبوس السابق وبيان لمدرسة الحوليات.

يزخر الكتابان بالكثير من التعاليم التي تدعو المؤرخين إلى ضرورة الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية، والاطلاع على نتائج العلوم الأخرى، وعدم الاقتصار على الوثائق المكتوبة كعنصر مركزي في التحليل التاريخي. كما يعدان بمثابة نداء بضرورة توسيع دائرة مصادر المعرفة التاريخية وذلك بالاعتماد على كل ما من شانه أن يفيد في فهم وحل القضايا التاريخية (بقايا أركيولوجية، نقود قديمة، خرائط، رموز... والاستعانة بالعلوم المجاورة مثل اللسانيات وعلم الأخلاق... كما تثير الانتباه للقبليات الأيديولوجية في التعاطي مع التاريخ وخاصة التاريخ التاريخاني.

2- نوع مرتبط بأبحاث تاريخية عملية ويتجلى فيها بوضوح رصد العلوم الإنسانية نذكر منها:

" الأرض والتطور البشري: مقدمة جغرافية للتاريخ" ل لوسيان فيفر والصادر سنة 1922 بالسلسلة الضخمة " تطور البشرية " وفيه عمد المؤلف إلى مد الجسور بين التاريخ والجغرافيا، وهو الكتاب الذي سيمهد السبيل للتأليف لاحقا أمام الجيو-تاريخ La geo histoire

"الخصائص الأصلية للتاريخ القروي الفرنسي من القرن 11 إلى القرن 18 " ل مارك بلوك والصادر سنة1931.
وهذا الكتاب هو تحليل لتطور البنيات الزراعية في الغرب القر وسطي والحديث، يعاين فيه صاحبه أشكال استغلال الأرض، تقنيات الإنتاج، طرق الإسكان، الممارسات الجماعية خلال مدة طويلة وفي مجموع فرنسا.
" المجتمع الفيودالي "La société Féodale ل مارك بلوك أيضا والصادر سنة 1936 والكتاب مشروع تركيبي لمعارف المرحلة، وتحليل مجتمعها الإقطاعي تحليلا اقتصاديا واجتماعيا واثنوغرافيا.[1]

إلى جانب هذه الأعمال دشنت الحوليات في نفس المرحلة ميدان التاريخ الاقتصادي كتوجه عملي آخر إذ انصب الاهتمام على تاريخ الظرفيات المبني على أساس الأرقام والجداول والبيانات – التاريخ الكمي– وفي هذا الإطار ستبرز أعمال مهمة منها:

" التقلبات الاقتصادية والأزمة العالمية " ل F. SIMIAND والصادر سنة 1932

" الخطوط العامة لحركة الأسعار والمداخيل بفرنسا خلال القرن 18 " ل E. LABROUSSE 1933
Esquisse de mouvement des prix et de revenus en France au 18 siècle

" أزمة الاقتصاد الفرنسي في نهاية العهد القديم وبداية الثورة" لنفس المؤلف والصادر سنة 1943

لا ينتمي لابروس بشكل صارم لمدرسة الحوليات لكنه قبل بالتعاون مع أقطابها، وفي نفس الوقت كان يدرس بالسوربون حيث كون جيلا من المؤرخين الاقتصاديين الذين استخدموا التاريخ الكمي كأساس للتاريخ الاجتماعي.
ففي كتابه الأول كشف لابروس عن تتابع الدورات الاقتصادية في فرنسا والظرفية التي أفرزت الثورة الفرنسية.
مستعينا بسلسلة من الاثمنة، وبفضل المعطيات الإحصائية التي جمعها. قدر أن حركة المدة الاقتصادية الطويلة Trend تحصل كل قرن. وحركات المد والجزر على مدى 25 سنة. والدورات القصيرة على مدى يقل عن 10 سنوات. بينما التقلبات الموسمية تحدث خلال بضعة أشهر.
أما كتابه الثاني فيؤسس نموذجا لازمة عهد ما قبل الثورة الفرنسية. فبعد دراسة إحصائية، أوضح أن الأيام الثورية هي تلك التي عرفت أدنى مستوى في إنتاج الحبوب، وأعلى مستوى أسعار الخبز والخمر. واستنتج أن الاختلالات الاقتصادية تنعكس بأشكال مختلفة على الطبقات الاجتماعية وتقود نحو الصدمات السياسية.[2]

3– مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية " من حوليات التاريخ الاقتصادي الاجتماعي" إلى " الحوليات: اقتصادات مجتمعات حضارات"

بعد الحرب العالمية الثانية سيفرض التاريخ الجديد نفسه اعتمادا على مجلة " الحوليات: اقتصادات مجتمعات حضارات" E.S.C وعلى معهد للبحث والتدريس، الشعبة 6 من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا La 6

[1] ينظر وجيه كوثراني ، تاريخ التأريخ ، ص ص: 209 ، 211. التيمومي ، المدارس التاريخية ، ص ص: 179 ، 183.
[2] - عبد المالك يعقوب ، محمد أباحمان ، مدرسة الحوليات ، مجلة التاريخ مجلة إلكترونية على النت ، تاريخ الزيارة 2022/11/07م الساعة 10: 41د صباحا

section de l'école pratique des hautes études وعلى شبكة من العلاقات داخل أوساط النشر والصحافة.

فبعد تحرير فرنسا 1946 والى 1956 التي تصادف تاريخ وفاة لوسيان فيفر توجهت المدرسة في اتجاه يتجاوز المعطى السوسيو اقتصادي المتمركز حول مفاهيم الدورات والأزمات والظروف إلى منهج البنيات والمدد الطويلة. وفي هذا الإطار اقتحم فيفر حلقات تاريخية جديدة خولت له إمكانية استكشاف ميدان العقليات، مانحا المجلة عنوانا جديدا ومحتفظا بإدارتها مستعينا بمجموعة جديدة ضمت-F.Braudel. P. Leuillot – J.Freidman

ما بين 1956-1976 سيصبح بروديل موجهها والمسؤول عليها بعد أن أحاط نفسه بهيئة تضم J. Le goff E.Leroy ladurie - M.Ferro- وكتابة تولى عليها - J.Revel ... R.Mandrrou A.Burguiere

شق بروديل طريقه نحو التاريخ الجديد المنفصل عن التاريخ التقليدي متأثرا بدروس الجغرافيا الإنسانية بكتاب " لوحة عن فرنسا " لـ De la blache، وباطروحات إقليمية ل Blanchard و Sion وDemangeon المهتمين بخصائص البيئة الطبيعية أثناء دراسة التحولات التاريخية. كما استوحى تجربة L.Febvre الذي فتح حوارا بين التاريخ والجغرافيا في كتابه " الأرض والتطور البشري" وبنظرته في الكتابة التاريخية القائمة على أساس طرح المشكلات الكبرى L'histoire Problème في سياق الزمن التاريخي الطويل. فضلا عن الاحتكاك مع الاتجاهات الفكرية المختلفة كالمادية وخاصة البنيوية.

سواء في سلسلة مقالاته ذات الطابع المنهجي التي جمعها ونشرها تحت عنوان "كتابات حول التاريخ" 1969 أو في أطروحته النموذجية " البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني" التي نشرت عام 1949 أوفي مجموع مؤلفاته الأخرى " الحضارات الكبرى للعالم المعاصر " 1963, و" الحضارة المادية: الاقتصاد والرأسمالية من القرن 15 الى القرن18 " 1980, أو في " دينامية الرأسمالية " 1985 استطاع بروديل استيعاب نماذج الدراسة البنيوية, واتجهت دراساته نحو الجغرافيا التاريخية وهو اتجاه سيؤثر على موضوع التاريخ بشكل جذري من حيث البرنامج وتشكيل المفاهيم.[1]

مفاهيم التحليل البروديلي.

في أطروحته" La méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de philippe2 (1558-1598)» حاول بروديل تجسيد أهمية وفعالية المؤثر الجغرافي في ميلاد حضارة البحر المتوسط، كما أن ثنائية العنوان (المجال- الإنسان) وتقديم المجال عن الإنسان يكشف عن الثقل الذي يمثله المجال في

[1] - التيمومي ، نفسه ، ص: 183 ، 184.

صيرورة التاريخ المتوسطي وهو ما اصطلح عليه بـ "الجيو تاريخ". واضعا ثلاث مكونات متدرجة من مستوى زمن الطبيعة إلى مستوى الزمن الاجتماعي فالزمن الفردي، وهذه الأزمنة متداخلة ومتكاملة لا تفهم إلا في إطار الشمولية التاريخية:

– المكون الأول: في قاعدة الهرم يتعلق بتاريخ شبه ثابت، تاريخ الإنسان في علاقاته مع الوسط الذي يحيط به، تاريخ بطيء السيل والتحول. مكون غالبا من حلقات متكررة.

– المكون الثاني: في الوسط وهو عبارة عن تاريخ ذو إيقاع بطيء، تاريخ بنيوي، تاريخ اجتماعي لأنه تاريخ الجماعات والتجمعات.

– المكون الثالث: في الرأس. هو تاريخ تقليدي، تاريخ ذو بعد فردي وليس ذا بعد إنساني. انه تاريخ التغيرات الوجيزة والسريعة.

وهذا التصميم للتاريخ يطرح جدلية بين المجال والزمن ويفرز تعددية في الأزمنة والآماد:

- زمن طويل هو المستوى العميق للواقع التاريخي، هو المركز الذي ينجذب حوله الزمن الدوري والزمن القصير. وهذا الأمد الطويل لا يمكن أن يفهم إلا في نطاق مفهوم آخر موازي هو " البنية " فالأمد الطويل هو تاريخ بنيات (جغرافية اقتصادية اجتماعية ذهنية) بطيئة التطور، وهو مفهوم تاريخي، أي تركيب وهندسة. ويظهر هذا التحليل المبني على الأمد الطويل في الفصل الأول من الأطروحة والمعنون بـ"حصة المجال " حيث يستعرض فيه مختلف الوحدات الجغرافية المكونة للمجال المتوسطي.

- الزمن الدوري أو زمن الحلقات الدورية. ويعني به بروديل تاريخ الظرفية Histoire de la conjoncture. تاريخ التذبذبات التي يعيشها الاقتصاد، كواقع ارتفاعات وهبوط الأسعار التي يمكن التعامل معها عبر مقاطع زمنية عريضة:10-20-50 سنة، والجدير بالذكر أن الظرفية امتدت مع بروديل لتشمل إضافة إلى دورات الأسعار ودورات الإنتاج الدورات الديمغرافية، والدورات البيولوجية.

ولا يقتصر الفصل الثاني من الأطروحة على " الحلقات الدورية " فقط بل يجمع وعلى نحو جدلي البنيات والظرفيات (الزمنين الطويل والدوري) والملاحظ في إطار العلاقة الجدلية بين هذين المستويين، أن الدورات والبيدورات والأزمات إذا تكررت باستمرار ولم تؤد إلى تراكم حامل لتغيير نوعي. تدرجت في البنية وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الزمن الطويل.

- الزمن القصير: وهو المستوى الثالث من المستويات المفاهيمية والتاريخية للتحليل البرودلي، والمرتبط بالتاريخ التقليدي، للفرد، للحدث. إنه زمن الإخباري والصحفي – الميكرو تاريخ-.

والفصل الثالث من الأطروحة الذي يحمل عنوان " الأحداث السياسية والأفراد " يجمع بين تحليل المؤسسات السياسية والتنظيمات العسكرية للقوتين الاسبانية والعثمانية يعتبر مساهمة في التاريخ السياسي والدبلوماسي

والعسكري, وتنازلا منه للتاريخ الحدثي لكنه يجعله في المرتبة الثالثة والأخيرة تاركا المكان الرئيسي للقضايا والمشاكل الأساسية في تاريخ الإنسان.[1]

إن بروديل وان كان في أطروحته قد هدف إلى استيعاب زمن التاريخ في تعدديته (زمن طويل, زمن دوري, زمن قصير) لفهم الواقع الاجتماعي في شموليته لبناء تاريخ كلي Histoire totale يهتم بكل ما يتصل بالحياة البشرية, فانه في كتابه " الحضارة المادية: الاقتصاد والرأسمالية " قد ركز على البعد الاقتصادي, وكأنه يجسد عمليا التصور المادي للتاريخ. حيث اخذ هذه المرة بعدا أوربيا بل عالميا في إطار تاريخ مقارن يشمل قارات (أوربا أسيا أفريقيا أمريكا) على مدى الأزمنة الحديثة. وفي الكتابين يسعى بروديل إلى نظرة علمية تسهم فيها العلوم الإنسانية. إذ لا حل بدراسة مبنية على تعدد المناهج وإنما بتوحيد العلوم في " علم إنسان " للوصول إلى استنباط منهجية واحدة تطبق على جميع علوم الإنسان وذلك برؤية شمولية.

بعض سمات المنهج البروديلي

– تلعب الجغرافيا دورا بارزا في التطور التاريخي، ويساهم الاقتصاد في تحقيق ذلك التطور ويؤثر على الإنسان والبيئة الجغرافية معا.

– عدم الفصل بين الجغرافي والاقتصادي والثقافي والسياسي وغيرها من جوانب الحياة الاجتماعية

– الاستناد إلى وثائق أصيلة والاستعانة بالعلوم المساعدة.

– التاريخ علم شمولي بطبيعته، وعلى المؤرخ إبراز تلك الشمولية من خلال تقسيم الواقع إلى حقب تاريخية تسهل دراستها عبر المدى الزمني الطويل.

– إن التاريخ الجديد متطورا باستمرار ولا يتعارض مع علوم الإنسان أو أن يحاول استيعابها وإنما فقط الاستفادة منها.[2]

– **مرحلة الخمسينيات والستينيات:** توجيه الاهتمام نحو ميادين الجغرافية التاريخية والتاريخ الاقتصادي والديمغرافية التاريخية

تمت الإشارة سابقا إلى إن الحوليات دشنت ميدان التاريخ الاقتصادي منذ ثلاثينيات القرن 20 لما تساءل المفكرون والمؤرخون والاقتصاديون حول أسباب التناوب بين فترات الازدهار والانكماش الاقتصاديين عبر فترات دورية باستثناء أزمة 1929 التي خرجت عن هذه القاعدة وكان لها وقع خاص. لذلك ظهرت أبحاث سبرت غور هذه الظاهرة. لعل أهمها أبحاث " سيمياند" « وهنري هوسير" " ارنست لابروس " فضلا عن أعمال " بروديل " التي

[1] التيمومي ، نفسه ، ص: 185 ، 186. عبد المالك يعقوب ، المرجع السابق.

[2] عبد المالك يعقوب ، المرجع السابق. كوثراني ، المرجع السابق ، ص ص: 211 ، 217.

أفرزت في إطار تلاحم الزمنين الطويل والدوري مجموعة من الأبحاث تخص الرواجات التجارية المنجزة على مجالات جغرافية شاسعة نخص منها عملين أساسيين:

- "اشبيلية والمحيط الاطلنتي:1504-1650 " 1650-1504 Séville et l'atlantique " ل Chaunue P. 1956

- " البرتغال والمحيط الاطلنتي في القرن 17 " Le Portugal et l atlantique au 17 siècle étude économique 1570-1670. ل F. Mauro 1960

وهناك أعمال جمعت البعدين الزمنيين (الطويل والدوري) في إطار إقليمي جمعت بين التاريخ الاقتصادي والتاريخ الديمغرافي, أهمها شهرة:

- " البروفانس السفلى من القرن 16 إلى القرن18 " ل.R. Baerel 1961

- " إقليم كاتلونيا في اسبانيا الحديثة " ل P.Villar 1962

- " فلاحو اللانغدوك من القرن 15 إلى القرن18 " ل E.Leroy la durie 1966

والاهم من ذلك أن التاريخ الاقتصادي المرتكز على تحديدات لوائح أثمان المنتوجات ولوائح المداخيل. والتاريخ الديمغرافي المعتمد على سجلات الزواج والوفيات والولادات قد التقيا في اطروحات عديدة تتعلق بإطار محلي، ومدة تغطي عدة قرون وأكثر هذه الاطروحات شهرة:

- " بوفي وبوفيسيس خلال القرنين 17-18 " 1600-1730 Beauvais et Beauvaisis ل. Goubert P. 1960 والتي تمثل منعطفا تاريخيا وتقدم نموذجا لتقدير نمو السكان خلال مرحلة ما قبل الإحصاء، مستفيدا من تجربة لابروس في الاشتغال على السجلات القديمة.

ووجب الذكر انه تشكلت منذ 1962 جمعية للديمغرافية التاريخية بمبادرة من غوبير ورينهارد، ونظمت حلقات دراسية ومناظرات. وجهزت مختبرا تابعا للمركز الوطني للبحث العلمي C.N.R.S. وأصدرت مجلة متخصصة "حوليات الديمغرافية التاريخية ".

كما تكونت بالجامعات الإقليمية جماعات وجهت طلبة الإجازة والسلك الثالث نحو استخدام السجلات الإحصائية. وفي نفس الفترة قدمت اطروحات تقارن بين التحولات الاقتصادية والديمغرافية، وتكشف عن بنياتها الخاصة، وبفضل تعدد هذه الدراسات المحلية والإقليمية تشكلت تدريجيا لوحة ديمغرافية لفرنسا ما قبل الثورة.

5- مرحلة السبعينيات : تدشين ميدان العقليات.

منذ هذه الفترة تدرجت الحوليات من ديمغرافية تاريخية ذات طابع كمي إلى أنثروبولوجية تاريخية ذات مظهر كيفي. جسدتها انتاجات أشارت إلى هذا التحول من تحليل الميكانيزمات الديمغرافية إلى تحليل السلوكات الجماعية نذكر منها:

- "تاريخ السكان بفرنسا وموقعهم من الحياة منذ القرن 18" ل F.Aries الذي لاحظ أن الإحصائيات الديمغرافية تكشف عن نمط عيش الناس، وعن التصور الذي يكونونه عن أنفسهم وأجسادهم ووجودهم العائلي. وفي سياق هذا التحول انعطفت جماعة الحوليات ووريثها التاريخ الجديد في اتجاه دراسة الجسد في حالة السقم والصحة والتقت في ذلك بتاريخ الطب حيث ستظهر أعمال مهمة منها:

- " الناس والطاعون بفرنسا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط "ل ج. بيرابين 1975.
- " الأطباء بفرنسا خلال القرن 19 " ل ج. ليونار 1976.

أضف إلى ذلك أن تاريخ السكان قد انعطف أيضا في اتجاه تاريخ الأسرة الذي قاد بدوره إلى تاريخ الجنس بتناوله مشاكل المحرمات الدينية، طرق منع الحمل، العلاقات الشرعية وغير الشرعية... تشهد على ذلك عدة أعمال منها:

- "أشكال الجماع البدوية من القرن 16 إلى القرن19 " ل فلاندران 1975
- " الحياة الزوجية في عهد ما قبل الثورة " ل لوبران 1975
- " الحب بالغرب في العصر الحديث " ل ج. سولي 1976.

وفي نفس الوقت حاول البحث ولوج الميدان الوعر حيث يلتقي البيولوجي والذهني، وبدأ الباحثون يفكرون في موقف الإنسان من الحياة عن طريق جمع المعلومات حول الإنجاب والحمل والولادة والطفولة الأولى منها:

- " الطفل والحياة العائلية بفرنسا ما قبل الثورة " ل ف. ارييس 1960
- " الدخول إلى الحياة: الولادات والطفولة بفرنسا التقليدية " ل ج. جيليس وم. لاجييه وم.ف. موريل 1978.

كما تساءل الباحثون حول موقف الناس من الموت عن طريق البحث في الطقوس الجنائزية خصوصا الوصايا وأشكال تصور العالم الآخر منها:

- " الموت قديما " ل M.Vovelle
- " الإنسان والموت" F.Aries 1977
- " الموت بباريس من القرن 16 إلى القرن 18 " ل P.Chaunue 1978

والى جانب اهتمام الحوليات واتجاهها نحو الأنثروبولوجيا التاريخية أقامت أيضا اتصالا بين التاريخ والإثنولوجيا. رغم أن الاهتمام بهذا الميدان كان قد برز منذ العشرينيات مع بلوك وفيفر، وستظهر مجموعة من الأعمال أهمها:

– "مونتيو، "قرية أوكستانية من 1294 إلى 1324 "لـ E.Leroy ladurie سنة 1975 الذي قدم فيه وصفا دقيقا للأعمال الزراعية لمجموعة قروية عاشت بمنطقة بيمون بجبال البرانس خلال القرنين 13 و14. وأنماط تربية الماشية، وأوضاع السكن، والسلوك اليومي، التكتلات العائلية، الطقوس السحرية، العلاقات مع السلطة...

– " رؤية المهزومين " ل ن. واشتيل 1971. حيث أولى فيه اهتماما لشعوب إمبراطورية الإنكا، واكتشاف رؤية المهزومين – الهنود الحمر – من خلال آثارها في الحكايات والاحتفالات والتظاهرات الفلكلورية بمقاربة تاريخية إثنولوجية سمحت بفهم الصدمة التي أصابت القبائل الهندية التي تعرضت للإبادة والاستغلال الوحشي الإسباني خلال القرن 16.

وهناك أعمال نبشت في أنماط تفكير النخبة، والاعتقادات الشعبية والتقاليد الدينية تعبر عنها هذه الأعمال:

– " القضاة والسحرة بفرنسا خلال القرن 18 " ل R.Mandrou

– " الورع الناذر والخروج عن المسيحية ببروفانس خلال القرن 18" ل M.Vovelle1978

واهتم تاريخ الذهنيات أيضا بأشكال الاجتماع وخصوصا الاحتفالات التي تكشف عن التناقضات الاجتماعية المكبوتة. وظهرت أعمال تجمع بين التحليل النفسي والتاريخ " علم النفس التاريخي " منها

– « لودان المسكونة " La Possession de Loudun ل M.DE Certeau 1970 وهو كتاب يمزج فيه صاحبه بين التاريخ السياسي وعلم الاجتماع الديني وعلم النفس المرضي لفهم قضية سحرية في القرن 18.

وبمناسبة الذكرى الخمسينية للحوليات كلف بروديل في بداية السبعينيات الفريق الجديد للحوليات j. le goff- E.Leroy ladurie ... بوضع جرد تقييمي لأعمال الحوليات ظهرت كالتالي:

– " صناعة التاريخ " وهو عبارة عن ثلاث مجموعات من المقالات جمعها LE goff P.Nora سنة1974 تطرح" مشاكل جديدة " وتضع الخطوط العريضة ل " مقاربات جديدة" " تحدد مواضيع جديدة ".

– " التاريخ الجديد " وهي موسوعة نشرها 1978 j. Le goff. عبارة عن خليط من المقالات المتعلقة ب: *

*الأسس (مفهوم البنية، المدة الطويلة، التاريخ المباشر....)

* الأسماء (هـ. بير، سيمياند، دومزيل...)

* المصطلحات (المناخ، اللغة، التحليل النفسي....)

ثالثا: الدعامات المؤسساتية التي تستند إليها الحوليات[1]

ابتكرت الحوليات طرق جديدة بهدف توسيع مجال رقعة الخطاب التاريخي المكانية على الساحة العالمية من خلال توفر المدرسة على عدة وسائل. يقول j.Chesneau " إن تكتل الحوليات هو أحد مراكز السلطة الفكرية بفرنسا"

[1] التيمومي ، نفسه ، ص: 183. عبد المالك يعقوب ، مدرسة الحوليات ، المرجع السابق.

· **اعتماد مجموعة الحوليات على مؤسسة جامعية:** حيث حصل L.febvre سنة 1947 على ترخيص بتأسيس شعبة سادسة داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، متخصصة في العلوم الاقتصادية والاجتماعية. ثم خلفه F.Braudel على رئاستها سنة 1956. وعند نهاية الستينيات والسبعينيات جمعت الشعبة 30 مديرا للدراسات منهم: مؤرخون (j. le goff-E.leroy ladurie F.Furet-M.Ferro) علماء اجتماع (A .Touraine –G.Friedman) سيكولوجيون-مؤرخون (M.De certeau – A.Besanson) اقتصاديون وديمغرافيون (P.Villar-Labrousse) ولقد احتفظت الشعبة على نفس الأهداف والتوجهات التي رسمها لوسيان فيفر:

- **تأمين الربط الوثيق بين التعليم والبحث**
- **تشجيع البحوث الميدانية الجماعية**
- **تنظيم لقاءات بين العلوم الإنسانية.**

. **إنشاء دار علوم الإنسان** "LA Maison des sciences de l'homme " سنة 1968 من طرف بروديل، حيث منحت تجهيزات ضخمة ضرورية للبحث وطاقم مكلف بتشغيل مختلف المصالح.

· **تحول المدرسة التطبيقية للدراسات العليا إلى مدرسة للدراسات العليا للعلوم الاجتماعية،** وحصولها على وضعية جامعة. وهو ما سهل عليها الحصول على القروض، وتسجيل الطلبة ومنح الشهادات.

· **الحضور القوي لمسؤولي الحوليات داخل دور النشر**: "غاليمار- فلاماريون – هاشيت

· **احتلال فريق الحوليات مواقع مهمة داخل وسائل الإعلام** عن طريق تقديم تقارير عن كتب التاريخ في بعض الصحف اليومية والأسبوعية مثل Le Monde - Le Nouvel observateur. وتقديم برنامج إذاعي " اثنين التاريخ " Les Lundis de l'histoire من طرف J.Le goff. وظهور ممثلي الحوليات بكثرة خلال المناقشات التاريخية والسياسية والأدبية بالتلفزيون.

رابعا: بعض الانتقادات التي وجهت للحوليات[1]

- يرى المؤرخ الايرلندي W.DEN BOER أن " الحوليات " و"التاريخ الجديد" قد استفادا من ميكانيزم معروف جيدا في تاريخ العلوم، يسميه" ظاهرة التركيز الضخم ". ويضيف «بفرنسا كما ببلدان عديدة غيرها، كانت توجد أفكار وبرامج ونماذج شبيهة بما لدى الحوليات. لكنها تنتمي إلى زمن سابق على خلق هذه الأخيرة." ويضيف أيضا " إن بلوك وفيفر لم يكتشفا حقا شيئا ذا بال، ولكنهما أتاحا لمقاربة عصرية للتاريخ أن تعرف النجاح المبكر في فرنسا، وأن تصبح مؤسسة. الشيء الذي أدى إلى إقامة قنوات وأتاح إمكانية البحث والنشر.

[1] عبد المالك يعقوب ، مدرسة الحوليات ، المرجع السابق.

– إن اللازمة المعرفية حول التاريخ الجديد (الأسطورة، الطقس، اللاوعي، الموت، الجنس، المرض...) التي ازدهرت خلال العشرين سنة الأخيرة ليست بريئة من الخضوع للموضة، والاستجابة لرغبات الجمهور الواسع والمتعطش لدراسات حول الممارسات الجنسية, الوسواس, الغرائز المكبوتة...

– ردة الحوليات عن الوظيفة الشمولية حيث أصبح التاريخ يكتب بالحرف الصغير وبصيغة الجمع histoires وهذا المعنى الجديد للتاريخ جعل المعرفة التاريخية تتفتت إلى أجزاء وتحلل الموضوع التاريخي داخل المحيط الشاسع للعلوم الإنسانية، وفقدانه لكل استقلالية – مع هذه الجماعة الجديدة – بعد أن كان في مرحلة سابقة يطمح إلى جمع كل تلك العلوم حول التاريخ.

– القول بانتفاء كل إيديولوجية عن أعمالهم لا تصمد أمام النقد إذ يمكن القول أن حقول العلوم الإنسانية لا تتسم بالبراءة والموضوعية حيث يختفي وراء كل خطاب جانبا مسكوتا عنه.

– تجنب المؤرخين الحوليين "كل اختيار إيديولوجي " وكل ما له طابع أنظمة/قوانين شمولية معممة وتجنبا لكل حتمية في التغيير يسقطهم في التفسيرات المتعددة للتاريخ.

– يعتقد الحوليون بأن التاريخ يسير بوتيرة معينة، ولكن في نفس الوقت لا يسير نحو هدف معين وهو ما أضفى على تحليلاتهم نوعا من الارتباك في تحديد غائية التاريخ وسيرورته والتأويلات الكبرى لمستقبل الإنسانية التي اقترحها فيكو، وكروتشي، وهيغل وديلتاي...

– إعطاء الأولوية إلى الأزمنة التاريخية الطويلة أدى إلى تركيز الإنتاج التاريخي الحولي على الفترات الحديثة والوسيطة وإهمال التاريخ القديم والمعاصر.

– تقديس الأسلاف حيث يبلور الخطاب الحولي صبغة شبه أسطورية لجذوره مع تخصيص تقديسي حقيقي للآباء المؤسسين، واستسلامه "بكسل" لتقديس الشخصية. يقول ميشيل مورينو:" إننا لا نجرؤ حتى على رصد أخطاء سيمياند، ونتعامى بنفس الدرجة عن الأخطاء الكبرى التي لا تخلو منها دراسات أقرب عهدا... إنني أدين عددا من الأخطاء الخطيرة التي تسربت إلى عدة مجالات أساسية في تاريخ الاقتصاد الحديث. وأدين التسامح الذي نعمت به لا لشيء إلا لمكانة كاتبها... وأدين... تقديس الشخصية في مجال التاريخ..."[1]

خلاصة القول عن هذه المدرسة، يمكن القول إن المؤرخ متفائل بطبيعته، والأمل كل الأمل هو "عودة الروح" للحوليات التي قدمت لعلم التاريخ خدمات لا ينكرها أحد، وأن استمرار هذه المجلة راجع إلى الخط الذي رسمته واستمرت عليه منذ صدورها سنة 1929 دليل على التجديد الدائم الذي يميزها وممارسة النقد الذاتي والبراغماتية والانفتاح المتواصل على التحولات الفكرية واعتبارها علم التاريخ علم "البحث الاجتماعي".[2]

[1] - عبد المالك يعقوب ، المرجع السابق.

[2] - التيمومي ، نفسه ، ص: 188.

محاضرة 5: المدرسة البنيوية

من أواخر القرن الثامن عشر، كثر في الغرب التأليف في علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه. وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جدا في هذه الموضوعات. منها المدرسة البنيوية، فماذا تعني هذه المدرسة؟ من هم روادها وما هو منهجها؟

- **تعريف البنية:**

البنية في اللغة هي البنيان، أو هيئة البناء، وبنية الرجل فطرته، نقول فلان صحيح البنية.

أما عند الفلاسفة فإن البنية هي ترتيب الأجزاء المختلفة التي يتألف منها الشيء.

وتطلق البنية في علم التشريح على تركيب أجزاء البدن، لا على وظائفها، وتطلق في علم النفس على العناصر التي تتألف منها الحياة العقلية من جهة ما هي عناصر ساكنة.

وللبنية معنى خاص وهو إطلاقها على الكل المؤلف من الظواهر المتضامنة، بحيث تكون كل ظاهرة منها تابعة للظواهر الأخرى، ومتعلقة بها.

والمذهب البنيوي في التاريخ (Structuralisme) هو المذهب الذي يبحث في البنى لا في الوقائع الجزئية. [1]

والبنيوية اتجاه ينصب على دراسة العناصر الكلية أو أحداث التاريخ الكبرى.[2]

- **تعريف البنيوية (Le Structuralisme) اصطلاحا:**

"البنية هي القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته. إنها نسق من التحولات له قوانينه الخاصة، باعتباره نسقا (سيستاما) يتميز بثلاث خصائص: **الكلية والتحولات والتنظيم الذاتي**. وكل تحول في أحد عناصر البنية يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى. البنية هي القانون الذي يحكم تكون المجاميع الكلية من جهة، ومعقولية تلك المجاميع من جهة أخرى. مفهوم البنية هو مفهوم العلاقات الباطنة الثابتة التي تقدم الكل على أجزائه بحيث لا يفهم هذا الجزء خارج الوضع الذي يشغله داخل المنظومة الكلية. دراسة البنية انحياز إلى السكوني في مقابل التطوري."[3]

[1] - جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، ص: 217 ، 218.
[2] إبراهيم مدكور ، المعجم الفلسفي ، ص: 34.
[3] - وجيه كوثراني ، تاريخ التاريخ ، ص: 220.

إنّ الاتجاه البنيوي هو توجه منهجي تتولى بموجبه العلوم استخراج البنى من الأشياء، وتركز البنيوية على توصيف الحالة الراهنة للأشياء وعلى إبراز صفاتها اللاّزمنيّة وعلى تحديد العلاقات القائمة بين عناصر النسق المدروس. شهد الاتجاه البنيوي Structuraliste في العلوم الإنسانية عصره الذهبي في ستينات القرن العشرين وسبعيناته، وفرنسا هي موطنه الأصلي. ولقد قيل إن علوم الإنسان حصلت لأول مرة على مصداقية علمية كانت تفتقر إليها دائما بفضل هذه النظرية، وربما أصبحت علوم الإنسان لأول مرة علوما وإنسانية في الوقت نفسه.

لقد عارضت البنيوية الفينومينولوجيا والوجودية والماركسية، وفندت المفهومين الرئيسيين اللذين قامت عليهما هذه النظريات، وهما الذات الفاعلة والوعي بالحرية.[1]

ويعتبر فردينان دي سوسير العالم اللساني الأب الحقيقي للحركة البنيوية الحديثة، وذلك من خلال محاضراته عن "علم اللغة" الذي أعطى الأولوية لـ "الجوهري" في اللغة، على "العرضي"، وركز على العوامل البيولوجية والفيزيقية (الأصوات) والسيكولوجية والاجتماعية والتاريخية والجمالية والعملية (أو البراغماتية) التي تتداخل وتتشابك لتكون نسيج النشاط اللغوي لدى البشر، أوصلته دراسة هذه العوامل إلى التمييز والتفرقة بين "اللغة" و"الكلام" لكون اللغة –في ماهيتها– نظاما اجتماعيا مستقلا عن الفرد (بنية)، في حين أن "الكلام" هو منها بمنزلة التحقيق العيني الفردي... والصلة بين اللغة والكلام هي كالصلة بين الجوهري والعرضي، وبكلام آخر بين البنيوي والتاريخي.[2]

فتح هذا المنهج البنيوي اللساني في مقاربة اللغة الأفق واسعا على إعادة النظر، أو التطوير في مناهج عدد من حقول الدراسات الاجتماعية والإنسانية (بما فيها الدراسات التاريخية). كان مؤرخو مدرسة الحوليات الفرنسية (المؤسسون) من أوائل من تلقى إيحاءات الدراسات اللسانية عبر مفاهيم ومصطلحات: العلامة (Signe) والدال والمدلول، والسيميولوجيا كلغة كاشفة عن المجتمع، كذلك كان علم الاجتماع، ولا سيما عبر فرعيه الذين تفرعا أو انشقا عنه (الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا)، أكثر انفتاحا على الدراسات البنيوية اللسانية، لأن هذه الأخيرة تقدم من باب أوسع، مادة غنية ودسمة لما يسعى إليه الأنثروبولوجي والإثنولوجي: من تفسير معطيات الثبات والسكون في حياة وسلوكيات الأقوام والشعوب والقبائل، ودراسة رموز الثقافة وأنظمتها في الفن والأساطير، والطقوس والعادات والتقاليد وأشكال التبادل والهدايا (سلعا وأفكارا)، وذلك من خلال اللغة والكلام.[3]

[1] - الهادي التيمومي ، المدارس التاريخية الحديثة ، ص: 149.
[2] - كوثراني ، المرجع نفسه ، ص: 221.
[3] - كوثراني ، المرجع السابق ، ص: 221 ، 222.

وأقطاب البنيوية كثيرون مثل **كلود ليفي شتراوس** في الأنثروبولوجيا، **جاك لاكان** في علم النفس التحريبي، و**لويز ألتوسير** في الماركسية، و**رولان بارت** و**زفيتان تودوروف** في الأدب، و**جورج ديميزيل** في علم الأديان، **وميشال فوكو وجاك ديريدا**...[1]

ولا توجد بين هؤلاء البنيويين وحدة في المناهج، وإنما هناك عددا من الخلافات بين هؤلاء المفكرين، حيث طور كل منهم الأفكار الأساسية للبنيوية بطريقته الخاصة، وكيفما كان الحال، فإن هناك فكرة أساسية في قلب البنيوية، وهذه الفكرة قد تولدت، ولحد بعيد، من أعمال ليفي شتراوس، الذي أبان الطريق الذي يحل نهائيا وبشكل حاسم المعضلة التي بليت بها العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ شروعها في تقديم تقويم علمي للعالم الإنساني الذي بمستطاعه أن يدرك تماما هذا العالم باعتباره عالما للمعاني.

لقد اعتبر عمل ليفي شتراوس بالنسبة للبنيويين قطيعة أساسية مع مرحلة ما قبل البنيوية، التي كانت موزعة بين محاولات وضعية بدائية لاختزال العلوم الإنسانية إلى فرع من العلوم الطبيعية ومحاولات رومانسية لعرقلة العلوم بالإصرار على عدم قابلية الطابع الذاتي للتجربة الإنسانية للاختزال. لذا يجب أن ترتكز أي محاولة لفهم العالم الإنساني بالنسبة للبنيوية على معارضة ضارية للشرور الوضعية الطبيعية أو الواقعية والنزعة الإنسانية التي تتميز بالاعتقاد الساذج بوجود واقع مستقل عن الادراك الإنساني أو بوجود إنسانية قادرة على خلق عالمها الخاص.[2]

ويتألف الإطار التاريخي الذي نشأت فيه البنيوية واشتد عودها من عناصر سياقية عديدة نذكر أهمها:

- الأزمة التي كانت تعاني منها العلوم الإنسانية في بحثها الدائم عن الشرعية العلمية، كما ذكرنا سابقا
- الارتباك الذي انتاب منظومة القيم التي كانت سائدة في العالم، ومن بين مظاهر هذا الارتباك إيغال الكثير من الفلسفات في التجريد والاهتمام بالجانب الذاتي في الإنسان، وإهمال كل علاقة له بغيره من البشر، والذهاب بالظواهر إلى ما يميز الواحدة عن الأخرى دون النظر إلى الوشائج التي تصل هذه بتلك، ومن غير استناد إلى رؤية كلية تجمع الجزئيات والتفاصيل لجدلنة العلاقات بين الأشياء حتى يكون لها معنى ومنطق يسوسانها

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 149. سايمون كلارك ، أسس البنيوية: نقد ليفي شتراوس والحركة البنيوية ، ترجمة: سعيد العليمي ، دار بدائل ، مصر ، 2015 ، ط1 ، ص: 9.

[2] - سايمون كلارك ، المرجع السابق ، ص: 9.

- ما أظهره الإنسان من عجز عن التحكم في مصيره بعقله جراء ما ابتلى به هذا الإنسان نفسه في الحربين العالميتين والأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 وحرب فييتنام وغيرها من الويلات، الأمر الذي جعل الكثير من المفكرين لا يثقون بهذا الإنسان، بل يتساءلون إن كان التقدم المتحدث عنه حقيقة أم وهما.
- درجة العمق التي أدركها الفلاسفة عند إعمالهم العقل في اللغة، إذ صار من المعروف أن تجدد الفلسفة في القرن العشرين يعود بنسبة كبيرة إلى حوار الفلاسفة حول اللغة (مفهومها ومضمونها وإشكاليتها)، فاللغة من أشد الظواهر التباسا وتلبسا بالذات، إذ لا يوجد كائن من دون لغة ولا إنسان من دون لسان، وكان للسانيات أو علوم الألسنية ولواضع أسسها السويسري **فرديناند دي سوسور** ت 1913، الأثر الحاسم في ميلاد البنيوية.

كما أن الفلسفة التحليلية ركزت على العلاقة بين اللغة والواقع، مع كل من **جون أوستين ولودفيغ ويتغنشتاين..**

- الإضافة الجديدة التي قدمها فرويد للبنيوية والمتمثلة في اكتشاف مفهوم اللاوعي أو اللاشعور في الإنسان.
- تحرر المستعمرات السياسي بعد الحرب العالمية الثانية وتكثف الاتصالات بين العالم المتقدم والدول الناشئة، جعل الكثير من المفكرين الغربيين يكتشفون ثقافات جديدة تحمل مفاهيم للزمن وللحياة مغايرة تماما لما ألفه الأوروبيون والأمريكيون الشماليون.[1]

إن اللغة هي الميدان التي أنطلق منه البنيويون، وعمموا ما استنتجوه من استخلاصات على بقبة الميادين مثل علاقات القرابة الدموية أو الأساطير أو الاقتصاد أو اللاوعي..

لقد كشف دي سوسور أن اللغة هي علامات signes مصطلح عليها ولا واعية، أي مستقلة عن إرادة المتكلم (مرض الإشارة إليه بالأحرف ميم راء ضاد)، كما اكتشف مفهوم النسق (Système) إذ أن كل مجموعة من الأصوات لها معنى محدد، والصوت الواحد قد يعبر به في لغة أخرى عن معنى آخر. وهذا يدل على أن المعنى لا يرتبط بالصوت وإنما بطريقة ارتباط الأصوات في ما بينها. كما أعطى دي سوسور الأولوية للدراسة الآنية اللاتاريخية أو السنكرونية (Synchronique) للغة وترك جانبا الدراسة التعاقبية أو الدياكرونية (Diachronique) لأن ما يهم عالم اللغة في نظره هو حالة اللغة التاريخية في اللحظة التي يدرسها فيها، وليس كيف نشأت وكيف

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 149 ، 150.

تطورت عبر التاريخ. فدراسة اللغة كلعبة الشطرنج، يكفي التعرف إلى قواعدها لممارستها وللنبوغ فيها دون أن تهتم بالتعرف إلى أصولها وتاريخها.

وتعرف البنيوية لغة بأنها الطريقة التي يُشبّه بها بناء ما، كما تعرف بأنها التعاضد الذي يقوم بين أقسام البناء من الناحية الهندسية أو الجمالية، وتعرف البنية من منظور فلسفي بأنها مجموعة علامات متكاملة ومتناقضة في ما بينها بحيث تشكل هذه العلامات نسقا (نظاما) على غرار اللغة، ولا يتحقق لواحدة منها وجود إلا وهي في علاقة بالعلامات الأخرى.[1]

وتشكل علاقات القرابة الدموية والأساطير والاقتصاد، على سبيل المثال، عوالم من العلامات، كما تخضع هذه العلامات إلى ثنائيات متضادة (ذكر- أنثى، صحيح – خاطئ، ..)

ويميز البنيويون بين ما هو ثابت (سنكروني) لا يتأثر بالزمن، وبين ما هو تطوري أو تعاقبي (دياكروني). ولا تهتم البنيوية لا تهتم البنيوية إلا بما هو سنكروني، أما ما هو تطوري فلا تعيره أهمية، وتبحث البنيوية عن الثوابت، وعن الأمد الطويل، ويمكن القول إن البنيوية مناهضة لعلم التاريخ، لأن علم التاريخ هو علم التغير الدائم.[2]

إن البنيوية طريقة استنباطية تنقب عن البنى اللاواعية التي يمكن بلوغها عن طريق المعطيات الأمبيريقية في مختلف ميادين الثقافة مثل علاقات القرابة الدموية والأساطير والطقوس والإنتاج الفني والإيديولوجيات السياسية وممارسات الطبخ والتصنيفات النباتية..إلخ. إن وراء كل معنى يحمله الإنسان لخطابه أو لممارساته المختلفة بنى ضمنية تشكل إطارا للتعبير. لقد كان الإنسان يتصور خطأ أنه سيد خطابه، فاكتشف أن الخطاب هو سيده.[3]

إن البنيوية تتفق مع الماركسية حول الفكرة التي تقول إن حقيقة الإنجازات البشرية مدفونة تحت ستار الإيديولوجيا، وتتفق مع علم النفس الفرويدي حول الفكرة التي تقول إن الإنسان لا يحركه الوعي أحيانا وإنما يحركه اللاوعي الذي يحتل الجنس مكانة هامة داخله، وتتفق البنيوية مع علوم الطبيعة حول فكرة ضرورة اختزال التنوع الشديد للإنجازات البشرية إلى عدد محدود من العناصر والقوانين. ولعل أكبر نجاح حققته البنيوية كان في مجال اللغة. لذلك يردد البنيويون دائما مقولة "كل شيء لغة".

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 150 ، 151.
[2] - التيمومي ، نفسه ، ص: 152.
[3] - التيمومي ، نفسه ، ص: 152.

وترفض البنيوية بشدة فكرة أن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه بمحض إرادته، وترى على العكس من ذلك أن البشر صنائع لأفكارهم، وأن أفعالهم لا تتحدد بواسطة اختيارات واعية حرة، وإنما هي نتيجة للبنى الكامنة في أفكارهم. وهكذا فإنه حسب البنيوية البشر دمى لا أكثر ولا أقل في أيدي البنى المستترة. وقد كتب كلود ليفي شتراوس سنة 1949 في مقال بعنوان "التاريخ والأنثروبولوجيا" أن على المؤرخ أن يقتصر على ما هو أمبيريقي وعلى ما تمكن مشاهدته وأن يكتفي برصد التجليات الواعية في سلوك الإنسان لأنه عاجز بطبيعة صناعته على النفاذ إلى البنى العميقة للمجتمع. أما عالم الأنثروبولوجيا فهو – في نظره – القادر على اختراع المفاهيم وعلى اكتشاف التعبيرات اللاواعية للحياة الاجتماعية.[1]

موقف البنيوية من التاريخ:

لقد ناهضت البنيوية التاريخ لأنها لا تهتم إلا بما هو ثابت ومقطوع من الزمن، لذلك طرح ليفي شتراوس في مختلف كتاباته التاريخ جانبا، مثل "البنى الأولية للقرابة" 1948، أو "مدارات حزينة" 1955، أو "الأنثروبولوجية البنيوية" 1958، أو "الفكر المتوحش" 1962، أو "النيء والمطبوخ" 1964، .. إلخ. درس شتراوس الثقافات البدائية دراسة سنكرونية تزامنية، واهتم بالعلاقات القائمة بين عناصرها المختلفة بمعزل عن مضمونها وعن الأفراد الذين ينتمون إليها. معتمدا على قناعة أن مختلف الثقافات ليست سوى تجليات مختلفة للاّشعور البنيوي الذي يظل واحدا. ويستحيل فهم كنه هذه الثقافات ما لم يفهم كنه هذا اللاشعور وآلياته. وقد بين شتراوس أن القرابة الدموية تحدد علاقات الأفراد بعضهم ببعض عن غير وعي منهم، وتشكل هذه العلاقات نسقا على شاكلة اللغة. فإذا كانت اللغة هي تبادل للكلمات، فالزواج هو تبادل للنساء، والاقتصاد هو تبادل للبضائع. إذن نحنأمام تجليات مختلفة لنفس البنية المستترة والثابتة نسبيا في الزمن والتي تحرك الناس دون وعي منهم وهي التبادل. والتبادل حسب شتراوس هو العامل الذي حول البشر من مرحلة الطبيعة والتوحش إلى مرحلة الثقافة.

إن البنى التي تتحكم في التبادل على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي بنى "لا واعية" مثل الطبيعة اللاواعية لبنية اللغة.[2]

[1] - التيمومي ، ص: 153.

[2] - التيمومي ، ص: 153 ، 154.

مواطن إضافة المؤرخ البنيوي:

- لقد استفاد المؤرخ البنيوي من التعامل مع الاختصاصات المعرفية الأخرى، وزالت الحدود بين علمه والعلوم الإنسانية الأخرى، نظرا إلى وجود نمط واحد من المقاربة ينطبق على جميع علوم الإنسان.
- حاول المؤرخ البنيوي التقليص من معاداة البنيوية للتاريخ، فقال إن التطور الإنساني سيرورة تواصل وانقطاع في نفس الوقت، والبنية حتى وإن بدت ثابتة، فهي خاضعة لسيرورة من التطور ولو كانت بطيئة. لذلك يعتبر المؤرخ البنيوي جميع الشعوب صاحبة تاريخ حتى وإن كانت شعوبا بدائية، بل إنه يذهب إلى أكثر من ذلك ليلغي الفوارق التي أقامها البعض بين الشعوب، حين وصفوا بعضها بالباردة أو "بلا تاريخ" ووصفوا الأخرى بـ "الساخنة" وبـ "التراكمية".
- أولى المؤرخ البنيوي أهمية إلى علاقات القرابة وقواعد الزواج، والأساطير والفن، وخاصة إلى الذهنيات أو إلى المخيال (L'Imaginaire) وهي من الأمور التي لا تتغير بسرعة، وهذه المواضيع لم تكن تحظى قبل ذلك التاريخ بالاهتمام الكافي.
- أثرت البنيوية كثيرا في مجلة "**الحوليات**" الفرنسية الشهيرة وذلك في سبعينات القرن العشرين. وقد قدمت هذه المجلة دراسات "**بنيوية**" متينة.

مواطن قصور المؤرخ البنيوي:

رغم الإضافات الجليلة التي قدمها المؤرخ البنيوي، إلا أن هناك ما يؤاخذ عليه من ذلك:

- إهماله بنسبة كبيرة التاريخ والتطور والدياكرونية، وتركيزه على اللامتغيرات والتاريخ الراكد.
- إن كان وجود البنية أمرا لا يشك فيه أحد، فإن الصعوبة تكمن في كيفية اشتغال البنى، ووفق أية قواعد؟ وما جاء به المؤرخ البنيوي في هذا المجال هو قواعد ليس بإمكانها اختزال التعقيد الكبير للواقع.
- اهتمامه الزائد عن اللزوم للواقع الداخلي للأشياء.
- تحول التاريخ بالنسبة للمؤرخ البنيوي إلى مجرد تعاقب لبنى مستقلة بعضها عن بعض، بحيث لم يعد هناك مجال للحديث عن تاريخ عالمي يشد بعضه بعضا.
- تعمق المؤرخ البنيوي في البحث عن التجلّيات المختلفة لنفس البنية، الأمر الذي جعله أحيانا يبالغ في التجريد وفي الابتعاد كثيرا عن الواقع البشري الملموس، وإلى الخروج باستنتاجات مفروضة بصفة تعسفية على الوقائع.

- عيب على المؤرخ البنيوي سقوطه في اللاإنسانية لأن الإنسان أصبح بالنسبة إليه بمثابة اللعبة في أيدي البنى الخفية، بحيث لم يعد هناك إنسان قادر على استعمال صيغة "الأنا" الحرة والمسؤولة والواعية. لقد تحول الإنسان لدى المؤرخ البنيوي إلى مجرد مفعول به حمال لآليات بنيوية، فإذا كان هذا الإنسان مثلا مسلما، فإنه لا يتكلم عن الإسلام وإنما الإسلام هو الطي يتكلم من خلاله، وأن البشر لا يتحدثون وإنما يُتحدثون بوحي من البنى الكامنة في اللغة، وهكذا تحولت البنيوية من مجرد منهج علمي إلى ما يشبه الميتافيزيقيا.

وفي الأخير يمكن القول أن البريق الذي صاحب البنيوية عند ظهورها ومع روادها، إلا أنها فقدت هذا البريق وتخلى عنها أغلب الذين اعتنقوها بحماس شديد مثل ألتوسير، ورولان بارت الذين قاما بانتقادها وبيان عيوبها.[1]

[1] - التيمومي ، المرجع السابق ، ص: 156 ، 157 ، 158.

محاضرة 6: المدرسة الوظيفية

تعريف المدرسة الوظيفية:

لغة: الوظيفة هي ما يُقدر من عمل أو طعام أو رزق أو غير ذلك في زمن معين، و تطلق أيضا على العهد والشرط.

الوظيفة عند الفلاسفة هي العمل الخاص الذي يقوم به الشيء أو الفرد في مجموعة مرتبطة الأجزاء ومتضامنة، كوظيفة الزافرة في فن البناء، ووظيفة الكبد في علم الفيسيولوجيا، ووظيفة التخيّل في علم النّفس، ووظيفة النقد في علم الاقتصاد، ووظيفة المعلم في الدولة.

و تطلق الوظيفة في **علم الحياة** على مجموع الخواص الضرورية لبقاء الكائن الحي، كوظائف التغذي، ووظائف الحركة، ووظائف التوليد.

و تطلق في **علم النفس** على جملة من الأسباب والعمليات الموجهة إلى هدف واحد.كوظائف الإدراك والانفعال، والتخيل، الخ.

و تطلق في **علم الاجتماع** على الأعمال، أو المهن، أو الخدمات الضرورية لحفظ بقاء المجتمع، ولهذه الوظائف الاجتماعية قسمان، و هما: الوظائف الخاصة التي يمارسها الأفراد بأنفسهم، والوظائف العامة التي تمارسها الدولة . كوظائف الأمن، والدفاع، والقضاء، وغيرها.

و الوظيفي Fonctionnel هو المنسوب الى الوظيفة، تقول:

علم النفس الوظيفي، وهو الذي يبحث في العمليات الذهنية من جهة ما هي وسائل لغايات معينة، والتربِّية الوظيفية هي التي تجعل ممارسة الوظيفة ضرورية لتنميتها.

و الوظيفية fonctionnalisme إحدى نظريات علم الجمال وهي القول أن جمال الأثر الفني يرجع الى منفعته[1].

الأصول التاريخية للوظيفية:

بعد تأسيس علم الاجتماع على يد سان سيمون بدأ العلم ينقسم إلى أكثر من اتجاه، ويمثل الانقسام الأول كل من أوغست كونت وكارل ماركس. فالاتجاه الوضعي لكونت والذي أطلق علم الاجتماع على العلم الاجتماعي الجديد كان بداية علم الاجتماع الأكاديمي. والاتجاه الثاني تمثل في النظرية المادية التاريخية لماركس والتي كانت لها صلة بالمجال الأكاديمي.

[1] - جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2 ، ص: 581.

وقد تطور علم الاجتماع الأكاديمي في القرن التاسع عشر تحت تأثير الاتجاه الوضعي، وشارك هربرت سبنسر إلى جانب كونت في هذا التطوير. واتخذ هذا التطور اتجاهين: أحدهما علم اجتماع نظري والآخر ارتبط أساسا بالدراسات الأمبيريقية. وحاول الاتجاه النظري أن يشيد مراحل تطورية رئيسية في تاريخ البشرية، وأن يصف في الوقت نفسه بنية المجتمع، وقد مثل سبنسر هذا الاتجاه النظري.

وهذا ما يدفع البعض إلى وصف علم الاجتماع الأكاديمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأنه " كان أولا ذا طابع موسوعي، إذ كان يهتم بالحياة الاجتماعية للإنسان في مجموعها، وبالتاريخ بأكمله. ثم كان تطوريا، وذلك تحت تأثير فلسفة التاريخ، مدعمة بواسطة نظرية التطور الحيوي. فكان يسعى إلى تحديد المراحل الرئيسية للتطور الاجتماعي.. كانت العلوم الاجتماعية تفهم بصفة عامة إبان القرن الثامن عشر على أنموذج الفيزياء، أما علم الاجتماع فكان يفهم في القرن التاسع عشر على أنموذج علم الحياة" باستثناء النظرية الاجتماعية لماركس.[1]

وقد بذلت الوظيفية محاولة لربط الأمبيريقية باتجاه نظري وبإطار تصور على الأقل، كما أنها حاولت خلق تركيبة تجمع ما بين بعض الجوانب النظرية لرواد علم الاجتماع في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وبعبارة أخرى حاولت أن تجمع ما بين الأفكار النظرية لسبنسر ودوركهايم وماكس فيبر علاوة على النظرة الأمبيريقية لكونت. ويمكن القول أن الوظيفية تحمل بعض أفكار سبنسر منطويا على نوع من التناقض حيث أن الوظيفية سواء في علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا ترفض النزعة التطورية. ولكن عندما نتمعن بعض جوانب أفكار سبنسر وأفكار الوظيفية يمكننا إيجاد الصلة الوثيقة بينهما زيادة على معرفة الأفكار المحددة لسبنسر التي وجدت استمراريتها في أفكار الوظيفية المعاصرة. وهي على النجو التالي:

- حاول سبنسر أن يستعير من البيولوجيا تفرقتها بين **البنية والوظيفة** وهما المصطلحان اللذان حظيا بانتشار كبير في علم الاجتماع المعاصر.
- اقتراحه صيغة فريدة وهي التكامل عبر التمايز أو التغاير، في محاولته تطبيق قوانين البيولوجيا وقوانين التطور التي وضعها هذا العلم على المجتمع، ولكنه تجنبا للنزعة الجبرية اعترف بإمكانية التحلل في مواجهة التطور.
- كان سبنسر يرى أن المجتمع كل عضوي وأن الرابطة بين الأجزاء المشكلة للكل تتشكل من اسهامات تلك الأجزاء. كما أنه وضع الصياغة القائلة أن التطور هو بحث دائم عن توازن جديد. [2]

أما التأثير الأكبر فيعود على دوركهايم، حيث أن الوظيفة كنظرية اجتماعية ترتبط بشكل دقيق بأعماله التي طرحت التفسير الوظيفي، ومثال ذلك كتاب "الصور الأولية للحياة الدينية"، لكن دوركهايم " اقترح نوعين

[1] - أحمد القصير ، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط3، 2012 ، ص: 115.
[2] - أحمد القصير ، نفسه ، ص: 116.

متعارضين للتفسير هما التفسير الوظيفي والتفسير السببي، دون أن يحدد أيهما أكثر ملاءمة لعلم الاجتماع، أو أن يبين أوجه الترابط بينهما.

ويظهر تأثير دوركهايم في كل من رادكليف وبارسونز، وقد أشار هذا الأخير بوضوح إلى تأثيره، خاصة بالنسبة لمفهومين رئيسيين للوظيفية المعاصرة:

- مفهوم نسق الفعل.
- مفهوم النسق الاجتماعي الذي تنهض صياغته استنادا إلى مماثلة بيولوجية.

وقد تدعمت بعض هذه المفهومات الوظيفية بظهور أعمال رادكليف براون بالذات، فتحت تأثيرها اتجهت الأنثروبولوجيا الاجتماعية عامة والبريطانية بوجه خاص نحو الكشف عن وظائف العناصر المختلفة داخل النسق الاجتماعي. وربط رادكليف مفهوم الوظيفة في الأنساق الاجتماعية بمفهوم الوظيفة في البيولوجيا أيضا.

ويتأكد هذا من قوله:" البنية العضوية كبنية حية تعتمد في وجودها المتصل على العمليات التي تجعل الحياة تقوم بعمليتها.. وفي الإشارة إلى الأنساق الاجتماعية وفهمها نظريا فان استخدام مفهوم الوظيفة هو نفس استخدامه العلمي في الفسيولوجيا. فيمكن استخدامه للإشارة إلى العلاقة المتبادلة بين البنية الاجتماعية وعملية الحياة الاجتماعية. فالمفهومات الثلاثة للعملية والبنية الوظيفية هي بهذا مكونات نظرية واحدة كمخطط لتفسير الأنساق الاجتماعية".[1]

ولقد استعمل مفهوم الوظيفة وهو مأخوذ من دراسة علم الحياة عن طريق التعرف على الطريقة التي تفيد إدامة الكائن الحي، ويعتمد هذا المفهوم على فكرة التداخل والتعاون القائم بين كل الأجزاء والعناصر المكونة للنظام الاجتماعي، فكل عنصر يؤدي وظيفة أو أكثر بغية الحفاظ على حيوية وإدامة حياة النظام.[2]

نظرة الوظيفية إلى المجتمع

...الوظيفيون ينظرون إلى المجتمع على أنه شبكة من النظم، مثل الزواج والدين، يرتبط بعضها ببعض ، ويعتمد بعضها على بعض، وطبقا لهذه النظرية فإن تغيرًا في واحد من النظم يتسبب في تغير النظم الأخرى.

مبادئ وأفكار المدرسة الوظيفية:

- قامت المدرسة الوظيفة في الولايات المتحدة كرد فعل للمدرسة البنائية.
- يعتبر وليم جيمس مؤسسا لهذا الاتجاه في علم النفس الفسيولوجي، تالكوت بارسونز في علم الاجتماع، راد كليف براون في الأنثروبولوجيا.
- تؤكد ضرورة استخدام منهج البحث العلمي.

[1] - أحمد القصير ، المرجع السابق ، ص: 117 ، 118.

[2] - طه العنبكي ، نرجس العقابي ، أصول البحث العلمي في العلوم السياسية ، دار أوما ، العراق ، ط1 ، 1436هـ / 2015م ، ص: 68.

- يرفض الفكر البنائي ويرى أنه لا يمكن تحليل الخبرة الشعورية إلى أجزاء أو عناصر شعورية تخضع لقوانين ميكانيكية. وعلى هذا الأساس فإنه يرفض أن تكون الخبرة الذاتية لمجموعة من الإحساسات المتتابعة والمتحدة مع بعضها.
- خلافا لفكر البنائيين يحدد وليم جيمس موضوع علم النفس بأنه دراسة الوظائف العقلية. وأن الخبرة العقلية عملية شخصية مستمرة وانتقائية.
- يظهر تفسيره الوظيفي في ظل معطياته الفكرية. على سبيل المثال يرى أن الخبرة الشعورية سيل من الأحداث من جانب، والفاعليات الذاتية من جانب آخر. حتى أنه يفسر الانفعالات كنتيجة للتغيرات الفسيولوجية لا كاستجابة للأحداث الخارجية (أحداث --- تغيرات فسيولوجية --- انفعال.)
- لا يمكن فصل الجسم عن العقل فهما وجهين لعملة واحدة.
- ظهر أثر وظيفية وليم جيمس في ظهور مدرستين وظيفيتين في أمريكا هما:

مدرسة شيكاغو في علم النفس الوظيفي وقد انصب اهتمامها على ربط علم النفس بالحياة اليومية. ومن أهم روادها جون ديوي وجيمس أنجل.

ومدرسة كولومبيا التي تأثرت بجيمس من جانب، وأيضا بتطور العلوم الطبيعية في بريطانيا وتحديدا بنظرية التطور لداروين من جانب آخر، وقد خرجت بفكرة متكاملة عن التوافق ومن أهم روادها كاتل والذي ركز على القياس النفسي والاختبارات العقلية، وثورندايك التي ركزت أبحاثه على تطبيقات علم النفس في مجال التعليم والتَّربية، كما يعتبر واحدا من المؤثرين في مسيرة المدرسة السلوكية في أمريكا.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبراش إبراهيم، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009.
- أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، 2012.
- إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي.
- ابن منظور، لسان العرب، مادة "أرخ"، دار المعارف، القاهرة.
- الدوري عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، 1420هـ- 2000م.
- السيوطي، جلال الدين، الشماريخ في علم التاريخ، تقديم، عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، 1411هـ/ 1991م.
- الهادي التيمومي، المدارس التاريخية الحديثة، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2013.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1.
- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984.
- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984.
- حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، منشورات إقرأ، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ/ 1980.
- حلمي عبد المنعم صابر، منهجية البحث العلمي وضوابطه.
- ديوبولد ب فان دالين، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997.

- ديوبولد ب فان دالين، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة: محمد نبيل نوفل وآخرون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997.

- ربحي مصطفى عليان، البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته، بيت الأفكار الدولية، عمان.

- ربحي مصطفى عليان، البحث العلمي أسسه ومناهجه وأساليبه وإجراءاته، بيت الأفكار الدولية، عمان.

- سايمون كلارك، أسس البنيوية: نقد ليفي شتراوس والحركة البنيوية، ترجمة: سعيد العليمي، دار بدائل، مصر، 2015، ط1.
- عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1982، ط 8.
- عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1982.
- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977، ط3.
- عبد الرحمن مرحبا، موسوعة الفلسفة.
- عبد الرحمن مرحبا، موسوعة الفلسفة، ص 313(919)
- - عبد المالك يعقوب، محمد أباحمان، مدرسة الحوليات، مجلة التاريخ مجلة إلكترونية على النت، تاريخ الزيارة 2022/11/07م الساعة 10: 41د صباحا
- عبد الهادي الغضلي ، أصول البحث، دار المؤرخ العربي، بيروت، 1412هـ. 1992م ، ط 1.
- غازي عناية، منهجية البحث العلمي عند المسلمين، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1405هـ. 1985م ،ط1.
- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.
- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.
- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبره، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1959.
- محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، مطبعة خالد حسن الطرابيشي، جدة، 1975.
- محمد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، مطبعة خالد حسن الطرابيشي، جدة، 1975.
- محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001.
- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية تدريبات عملية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
- وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اجاهات- مدارس- مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط2، 2013 .

فهرس المحتويات:

مقدمة: 2

محتوى المقياس: 3

المحاضرة 1: تعريف المنهج العلمي. 5

المحاضرة 2: العمليات الأساسية في المنهج العلمي: 13

محاضرة 3: مراحل تكون المنهج العلمي. 21

المحاضرة 4: الدعوة إلى استخدام المنهج العلمي 27

محاضرة 5: المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية والإنسانية 34

محاضرة 6: مقارنة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة 40

المحاضرة 7: المناهج الكمية والمناهج الكيفية 47

المحاضرة 8: الموضوعية والذاتية 50

السداسي الثاني. 54

محتوى المادة: 54

المحاضرة 1: المدرسة الإسلامية 55

محاضرة 2: المدرسة الماركسية 62

محاضرة 3: المدرسة الوضعية 65

محاضرة 4: مدرسة الحوليات 73

محاضرة 5: المدرسة البنيوية 87

محاضرة 6: المدرسة الوظيفية 95

قائمة المصادر والمراجع: 99